رولا خرسا

فضحكت فبشرناها

سيرة زوجات الأنبياء

دار دوّن

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

فضحكت فبشرناها
(سيرة زوجات الأنبياء)
رولا خرسا

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
للمزيد من كتبي على
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

إهــداء

إلى السيدة مريم العذراء
لا أستطيع أن أكتب عن النساء زوجات الأنبياء ولا أتحدث عنها؛ فهي وحدها في مرتبة الأنبياء
ألهمتني سيدتنا مريم كثيرًا؛ فهي المرأة الوحيدة التي اختصها الله بسورة تحمل اسمها: مريم.
ألهمني صبرها على معاناتها منذ أن اختارها الله لهذه الرسالة، ألهمني قدر المحبة الذي كان يحمله قلبها، ألهمتني روحها الطاهرة التقية.
سيدتنا مريم امرأة لم يعرف التاريخ لها مثيلًا، أم النور، لها أهدي كتابي.

مقدمة

لست بعالمة في مجال الدين، هذه مرتبة لا أدعيها.
إنما أنا مجرد واحدة من البشر الذين أتاحت لهم الظروف بعد تجارب مؤلمة كثيرة أن تتعلم أن أفضل منجى للإنسان في حالات الإحباط واليأس الشديدين، أو عندما نلمس القاع هو الله سبحانه وتعالى.
لذلك وُجد رجال الدين أولاً بما حباهم الله من علم يستطيعون به الإجابة على أسئلتنا واستفساراتنا. خاصة عندما يتعلق الأمر بالفقه والشرع والأمور التي تحتاج إلى شرح أو فتوى مفصلتين ومستندتين على حجة ودليل وبرهان.
أما أنا ككاتبة فهذه لم تكن مهمتي، مهمتي هي إعطاء معلومة صحيحة مع الحرص على مخاطبة الروح والقلب معًا جنبًا إلى جنب.
أما علاقتي بالكتابة في القصص الدينية فقد بدأت منذ سنوات طويلة، عندما بدأت في نشر مقالاتي في الصحف والمجلات، وكنت حريصة في عملي التلفزيوني والصحفي في رمضان من كل عام على تقديم أو كتابة قصص الأنبياء وقصص سيدات بيت النبوة، وآل البيت؛ بيت رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.
وهنا أصل إلى النقطة التي جعلتني أشرع في كتابة هذا العمل.
أول أسبابي إحساسي أن النساء عبر التاريخ كنَّ أقل حظًا بكثير من الرجال في تتبع سيرتهن وأثرهن، نحن نعرف الكثير عن تفاصيل نبي من الأنبياء، ولكن عندما يتعلق الأمر بامرأة لها صلة به يجب أن نبحث كثيرًا ونلهث في الكتب لمعرفة اسم السيدة التي شاركته حياته ورحلته.
بحثت كثيرًا عن زوجات الأنبياء الذين سبقوا سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، بدءًا من حواء زوجة سيدنا آدم أبي البشرية.
هذا الكتاب استغرق مني سنوات من البحث. كنت كمن يبحث عن إبر في أكوام قش..
وأود هنا أن أشكر فضيلة الدكتور «علي جمعة»، العالم الجليل الذي لديه من العلم الغزير ومن التواضع الكثير.
أشكره على تقديمه لي يد العون دومًا، كما أشكر مجمع البحوث الإسلامية على مراجعة واعتماد هذا الكتاب.
مرة أخرى أشرح لمن لم يصله ما أفعله، ولكل من يقرأ لي مشكورًا.
لست هنا بصدد إصدار فتوى أو تحليل لست أهلا له.
لست هنا لأتكلم في أي قضايا خلافية.
إنما أنا باحثة ناقلة لما كُتب، أجمع ما استطعت جمعه من معلومات لا تتخيلون كيف كانت صعوبة البحث عنها، فعندما يتعلق الأمر بالنساء، وجدت أن التعامل معهن حدث وكأنهن نسيًا منسيًا.
وكان ما ساعدني في هذا البحث هو إتقاني للغات الفرنسية والإنجليزية، فعدت في بحثي أيضًا إلى بعض المراجع الأجنبية، وفي الخارج من الكتب العديدة التي كتبت عن قصص الأنبياء كما جاءت في العهدين القديم والجديد.

بالطبع لم آخذ كل ما قرأته، بل كنت حريصة كل الحرص على كتابة ما يتفق مع احترامي الشديد لأي تفصيلة خاصة بالأنبياء والرسل وسيرتهم المقدسة، وكلما قرأت أكثر كلما تأكدت أننا في عالمنا العربي - باستثناء الدارسين والمتخصصين - لا نعرف تقريبًا شيئًا عن السيدات اللاتي شاركن حياة هؤلاء الأنبياء الذين كان لهم بالغ الأثر في أمم بأكملها.

فعندما نسأل: ما اسم زوجة سيدنا زكريا، السيدة العاقر المسنة التي وعدها الله بالولد، فضحكت فبشرناها؟

ما اسم زوجة سيدنا موسى التي قالت لأبيها إن خير من استأجرت القوي الأمين؟

لا نعرف حتى أسماءهن، فما بالكم بتفاصيل حياتهن!

هذا الكتاب اعتراف بسيط مني بدور أولئك النساء، واعتذار مني لهن لتجاهلهن عبر السنوات.

أتمنى أن ينتفع به القرّاء فيدعوا لي.

رولا خرسا

نوفمبر ٢٠١٩

القسم الأول:
زوجات الرسل

١ - حـــواء

سبحانه وتعالى، خالق السموات والأرض وما بينهما، الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، في حديث لي مع شاب غير مؤمن سألني لماذا أؤمن؟ أجبته بأن هناك طريقين أمامي: إما أن أؤمن وعندما أموت أكتشف أني كنت على حق وأذهب برحمته وعفوه وشفاعة حبيبي - رسول الله - إلى الجنة، أو لا أؤمن بأن هناك حياة أخرى وجنة ونارًا، وأموت، فأكتشف أن هناك فعلا حياة أخرى، فأُعاقَب على عدم تصديقي، وعندها لن أستطيع العودة لتغيير مصيري، اخترت الإيمان بالله أيضًا لسبب آخر، وهو الإحساس بالأمان، لعدم الإحساس بالوحدة، فلولا اليقين بأن الله موجود لكان كثيرون منا قد يئسوا، وربما انتحروا، تخلصًا من هموم الحياة ومن أعبائها، مجرد الإحساس بأن هناك مَن سيقدم الحل يعطينا أملا في الدنيا ويجعلنا نستمر على الأرض، بل يتمسك الغالبية بالحياة، مؤملين أن القادم أفضل، لماذا أؤمن بالله؟ لأنه بالنسبة لي العالِم بكل شيء، والقادر على كل شيء، وليس كمثله شيء، هو الحق العدل الرحيم الودود، إلى بقية أسمائه الحسنى التي نعرفها والتي لا نعرفها، والله سبحانه قادر على أن يقول لأي أمر: «كُنْ» فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت السموات والأرض وإليه تُرجعون، لو أراد خلق الكون في لحظة بأمر منه لفعل، ولكنه اختار أن تتم عملية الخلق في ستة أيام، لحكمة لا يعلمها غيره، وإن اجتهد العلماء في تفسير الأسباب، وتفاصيل عملية الخلق كما جاءت في التوراة أن الله سبحانه خلق في اليوم الأول النور، في دلالة على أن أول خطوة في طريق الإيمان به سبحانه وتعالى أن نفرق بين ظلمة البعد عنه ونور الإيمان به، في اليوم الثاني خلق سبحانه وتعالى السماء، وفي اليوم الثالث خلق سبحانه الأرض، وقسّمها إلى يابسة ومياه، وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر ليفصل بين الليل والنهار، أي لنعرف أن آخر أي عتمة نور، وبعد كل ليل نهار، وفي اليوم الخامس أمر الله البحار بأن تفيض بمخلوقاته، وخلق الطيور، وفي اليوم السادس أمر الله اليابسة بأن تُخرج مخلوقات حية، هي الدواب والوحوش، ثم خلق آدم، وأعطى البشر السيادة، وقصة الخلق في الإسلام جاءت في حديث رواه مسلم عن أبي هريرة، ، قال: «أخذ رسول الله، ﷺ، بيدي، فقال: خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه (أي الأذى والأمراض) يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»، آخر المخلوقات إذن كان آدم «أبوالبشر» عليه السلام. وقبل أن يخلق آدم خلق الله أولاً الملائكة ليسبحوا بحمده ويستغفروا لأهل الأرض. وبعد الملائكة خلق الجن من مارج من نار، أي من أطراف لهب النار، و«إبليس» من الجن، لم يكن أبدًا من الملائكة؛ لأنهم من نور وهو من النار كحال الجن، ويُقال إن الجن كانوا قبل آدم بألفي عام، وسكنوا الأرض وملأوها شرًا، فبعث الله إليهم جيوشًا من الملائكة أخرجوهم من بقاع كثيرة من الأرض، وجعلوهم يسكنون في جزر على الماء حتى يومنا هذا، خلق الله الملائكة والجن قبل خلق آدم بألف سنة أو أكثر، وبعد أن أفسد الجن الأرض طردهم إلى الجزر ليأتي سبحانه بالبشر ويعمروا الأرض.

ويتحدث القرآن عن عرش الله عز وجل: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [هود: ٧].

آدم وقصة الخلق

الله هو الأول والآخر، خلق الله أول ما خلق العرش، ثم خلق القلم ليخطّ به أقدارنا جميعًا، ولذا فإن «كل شيء خلقناه بقدَر»، فَلَو آمنّا بهذا واستسلمنا تمامًا وعرفنا أن لا شيء يغير القدر إلا الدعاء لارتحنا كثيرًا، وبعد أن خلق سبحانه السماوات والأرض والملائكة والجن قرر سبحانه أن يخلق البشر، أمر الله ملكًا من الملائكة بأن يذهب إلى تراب الأرض ويأخذ حفنة من كل ألوان التراب وأنواعه، لذا فالبشرية ليست من لون واحد أو طبع واحد، فكما التراب نحن، تختلف ألواننا وطباعنا، مِنّا مَن هو لين طيب كالطين، ومِنّا مَن هو قاسٍ كالصخر، وخلق الله آدم ومنه خرجنا جميعًا من تراب، كان ذلك في عصر يوم جمعة، لذا يُقال إن هذا الوقت تُستجاب فيه الدعوة، ثُم بلّل التراب بالماء، لذا جعل الله من الماء سببًا لكل شيء حي، فلا شيء أو أحد يحيا دون ماء، وبقي آدم على هذا الحال زمنا حتى تغيرت رائحته وهيئته وأصبح كالفخار، ويُقال إنه بقي سنوات على هذه الحال قبل أن ينفخ فيه الله سبحانه وتعالى الروح، كان الملائكة يترقبون الوقت الذي يقرره الله سبحانه وينتظرون إلى أن حانت اللحظة العظيمة، نفخ الله من روحه في آدم، وبدأت الروح تسري، في رأس آدم أولاً، ففتح عينيه، ثم وصلت إلى أنفه، فعطس، وعلّمه الملائكة قول: «الحمد لله» بعد العطس، فكانت بداية الكلام في الحمد، ثم سَرَت الروح في بقية جسمه، فقام ومشى حتى وصل للملائكة، فقال لهم: السلام عليكم، ليردوا عليه: وعليك رحمة الله وبركاته، لتكون أولى الكلمات هي الحمد، وثانيتها السلام، وثالثتها الرحمة، ولو فكرنا في تفاصيل حياتنا وملأناها حمدًا على نعم الله مهما كانت صغيرة، وأفشينا السلام حولنا مع أهلنا وأصحابنا وملأنا قلوبنا رحمة وأغدقنا بها على مَن حولنا لصلحت أحوالنا، وجاء أمر الله للملائكة أن اسْجُدُوا لآدم، فسجدوا جميعًا حتى جِبْرِيل تنفيذا لأمره سبحانه، إلا إبليس.

ليكون الكِبْر أولى الخطايا الموجودة فينا جميعًا كبشر، رفض إبليس الانصياع لأمر الله؛ لأنه من نار، فكيف يركع لمَن خُلق من طين، وهنا يأتي أول الدروس التي يجب أن نعيها، وهي أن داخل كل واحد فينا كبرًا، وهو إبليسنا، الكِبْر الذي يعيش داخلنا، وعلينا أن نعمل جاهدين على التخلص منه يوميًا، ويأتي سؤال يؤرقني دومًا: لماذا لم يطلب إبليس الصفح، مع أنه عالِم تمامًا أن الله هو الرحمن الغفور؟ تقديري المتواضع أن هذه أيضًا إرادة الله، الله أراد لإبليس هذا، كي يقوم بمهمته إلى يوم البعث، يوسوس لنا، يُكبِّر الكِبْر الذي يعيش في نفوسنا، فالكِبْر مكانه النفس لا القلب؛ لأن القلب لا يكون موطنًا إلا للخير والحب، أراد الله - وهو العالِم بكل شيء - أن يكون توازن القوى ليس بالخير فقط وإلا تحول البشر إلى ملائكة وكنا قضينا وقتنا نسبح بحمده فقط ولا نخطئ أبدًا، ولا بالشر المطلق وإلا كنا تحولنا إلى جن نفعل ما فعلوه قبلنا عندما عاثوا في الأرض فسادًا، أراد الله أن يخلق عالمًا فيه الخير والشر، نخطئ فيه ونتوب، ويُخلق داخلنا صراع يومي بين النفس - بكل ما فيها من رغبات، والتي نجاهد كي نحوّلها من أمّارة بالسوء إلى نفس مطمئنة - وقلبنا المفعم بمشاعر مختلفة، ثم مسح الله على ظهر آدم كى يطمئنه، فهو سبحانه عالِم أننا سنعيش في خوف، وكأنه بمسحته هذه أراد أن يمسح على كل مَن خرج من صلبه، مسحته رحمة، فهو الرحمن الرحيم، ورحلة آدم فيها اختصار لكثير مما تعيشه البشرية.

ثم استوحش آدم، خلق الله الكائنات جميعًا ثم خلق آدم بعد أن عاث الجن في الأرض فسادًا، خلقه من طين الأرض ثم نفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء جميعها، إلا أنه استوحش أي شعر بوحدة، ويختلف الفقهاء إن كان قد استوحش وهو في الجنة أم بعد خلقه مباشرة، المهم أنه استوحش وشعر بوحدة ولَم يكن سعيدًا، وهنا نتوقف لنسأل، كيف لآدم قبل أن يعلم بوجود حواء وأنها ستأتي من صلبه استوحش؟، إذن خلق الله آدم وبالتالي البشر وهم لا يستطيعون تحمل الوحدة، غريزة البشر تحتاج للآخر. نحن بحاجة لوجود نصفنا الآخر في حياتنا، أي آخر؟ من يكمل روحنا، والدليل أن الله سبحانه عرض على آدم الحيوانات كلها ولَم تؤنسه، كان بحاجة إلى من يؤنس روحه.

لقد خلق الله الرجل والمرأة من روح واحدة، وبالتالي يستوحش أحدهما دون وجود الآخر الذي يكمل روحه، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم: ٢١].

ولأن الأساطير اليهودية مليئة بقصص تحط من قدر المرأة، فهناك أسطورة ظهرت وانتشرت في القرن الثالث الميلادي عن أن الله سبحانه قبل حواء خلق امرأة أخرى من الطين تشبه آدم أسماها ليليث، أرادت أن تتساوى مع آدم في كل شيء فلم يتفقا فهجرته وتزوجت إبليس، فخلق الله سبحانه حواء من ضلعه الأيسر وروحه كي تكون جزءًا منه وقريبة من قلبه، وبما أن الأسطورة تبقى أسطورة ما دامت لم تذكر في القرآن الكريم، إلا أنها تؤكد نظرية الروح الواحدة والنفس الواحدة التي خلق منها آدم وحواء أولا وبقية البشر ثانيًا؛ لأن الله في آياته عن النفس الواحدة لم يذكر اسم آدم بل تحدث في العموم، مما يعني أنه ينطبق على كل البشر.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء: ١].

وخلق سبحانه المصور البديع كائنا يختلف في تكوينه الفيسيولوجي عن آدم، وأسماها حواء لأنها من الحياة وستكون جالبة للحياة، هي منتهى الكمال لأنها خلقت من ضلع حي، وهي نهاية الخلق، أي أن الله سبحانه ختم بها المخلوقات، تقول الأحاديث إن آدم كان نائمًا عندما أخرج الله سبحانه حواء من ضلعه، فتح عينيه فوجدها أمامه وأحبها فورًا، لماذا خلق كل واحد مختلفا عن الآخر؟ لأننا من روح الله حقا ولكن الكمال له وحده، لأننا يجب أن نشعر بالاحتياج للسكن مع الآخر، ولأن تؤام روحنا هو من يؤنس الوحدة، هو من نمنحه المودة، هو من نكون رحماء معه، ليس كل زوج وزوجة آدم وحواء، قد لا يلتقي بعضنا بتوأم روحه أبدًا لأنه ببساطة لم يبحث عنه، فما تبحث عنه يبحث عنك، والمحظوظ الذي يحظى بتوأم روحه عليه أن يكون لها أرضًا صلبة، أن يكون لها آدم كي تكون له سكنا، تكون له حواء.

٢ - زوجة النبي نوح نعيمة

اختلف المؤرخون على اسمها، منهم من سماها أمزرة أو أوزرة بنت براقيل، ومنهم من قال إن اسمها وحيلة أو وغيلة، عند اليهود اسمها ناعيمة ومعنى اسمها هو الجميلة، ويعتقدون أنها أخت توبال من نسل قابيل، ابن آدم، وفِي القرطبي جاء أن سيدنا جِبْرِيل عليه السلام قد قال لسيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام إن زوجة النبي نوح عليه السلام اسمها والغة، أنجبت والغة لزوجها سيدنا نوح أربعة من الأبناء هم: شيم، جافيص، هام، ويام، أحدهم غرق في الطوفان لأنه سار على نهج أمه في عدم الاعتقاد برسالة أبيه، عانى سيدنا نوح كثيرًا من زوجته، لم تصدقه عندما صدقه غيره وطعنته في ما أرسله الله إليه في الأرض: رسالته، ليس صحيحًا ما يقال من أنها كانت على علاقة برجل آخر؛ لأن الله سبحانه يأبى أن تكون زوجة رسول زانية.

ولم تطعنه في شرفه بأي تصرف، ولكن الطعنة جاءت عندما آمن كثير من قومه به ولم تؤمن هي، لا شيء يقتل الرجل قدر عدم مساندة زوجته له، أو عدم تقديرها له، لا شيء يدفع الرجل للغضب الشديد قدر تقليل شأنه من جانب زوجته، فالمرأة والرجل يبحثان عن التقدير والتصديق أولا في عيون الشريك، والله سبحانه جعل اختبار سيدنا نوح في زوجته، فلقد تزوجها قبل أن تنزل عليه الرسالة، كانت من عائلة ذات نفوذ وحسب، وبعد أن أمره الله بنشر دعوة التوحيد رغم أنها كانت الأقرب لقلبه، إلا أنها لم تصدقه. كانت تنعته بالمجنون وتنقل أخباره إلى قومها الذين كانوا يعادونه، يشبه البعض قصة سيدنا نوح وزوجته بآدم وحواء، فبعد غضب الله سبحانه وتعالى من البشر لكفرهم وعبادتهم آلهة غيره وانتشار المعاصي قرر إغراق الكون ليبدل البشر ببشر أفضل، تمامًا مثلما فعل عندما عصى آدم وحواء أوامره فقرر الله سبحانه إخراجهما من الجنة، وعلى الأرض بدأت البشرية ثم فني كثيرون في الطوفان ليبقى نسل نوح وزوجته ومن كانوا معه من المؤمنين، عصى آدم وحواء ربهما فطردهما من الجنة، وعصى قوم نوح ربهم فأغرقهم، ولكن فرقًا كبيرًا بين زوجة آدم وزوجة نوح، لم يقل الله في القرآن زوجة نوح بل امرأته، بينما قال عن السيدة حواء زوجته لأن الأساس في الزواج التوافق، فقال عن زوجة فرعون امرأة فرعون، يعتقد بعض المفسرين أنه ليس هناك آية صريحة تؤكد غرق والغة، ويعتقد البعض الآخر أن زوجة نوح قد ركبت معه السفينة وأن الله نعتها بالكفر ولكنها أكملت المسيرة معه ولم تغرق في الطوفان، وسواء غرقت في الطوفان أم أكملت وركبت السفينة فالمتفق عليه أنها كانت كافرة غير مؤمنة، وأتساءل: لماذا لم يتركها سيدنا نوح؟ لماذا لم يطلقها؟ ولم يردها إلى أهلها الذين كانت تدعمهم ضده؟ رأيي الشخصي المتواضع أن بعض الناس لا يفقدون الأمل في هدي من يحبون، فكيف إن كان الزوج نبيًا؟

٣ - سارة زوجة سيدنا إبراهيم

كانت توصف بأنها أجمل نساء العالم، عرفت عبر التاريخ بجمالها وبحب سيدنا إبراهيم الكبير لها، حكايات عديدة ارتبطت بها، كانت نصف شقيقة أو شقيقته من أمه حسبما جاء في العهد القديم، كان اسمها ساراي، ثم تغير إلى سارة بعد إنجابها لإسحاق، ويعني الأميرة أو النبيلة.

كانت تصغر سيدنا إبراهيم بعشر سنوات، يُحكى أنه كان يحبها كثيرًا ولا يرفض لها طلبًا، وبقي على حبه لها حتى النهاية، كان يعلم مدى جمالها، إذ تقول الأساطير إنها أجمل نساء الأرض، وأنها بقيت جميلة جدًا حتى بعد تقدمها في العمر، لدرجة أن أكثر النساء جمالا كن يحسدنها، كانت سارة أجمل النساء كما كان سيدنا يوسف أجمل الرجال، وسيدنا يوسف هو حفيد سارة، إذ يبدو أن الله قد اختص جزءًا كبيرًا من الجمال لهذه العائلة.

ضربت المجاعة أرض كنعان في العراق حيث كان يعيش إبراهيم وسارة، فقرر سيدنا إبراهيم الهجرة إلى جنوب مصر، واصطحب معه أهله ومن بينهم ابن أخيه النبي لوط، وعند اقترابهم من مصر وضع إبراهيم سارة في تابوت كي لا يراها الجنود، وعندما سألوه عمّا في التابوت أجاب: شعير، فجعلوه يدفع ضريبة، ثم طلبوا المزيد وكان في كل مرة يطلبون منه أكثر يقبل ويدفع، فشكّوا في أمره وأصروا على فتح التابوت، ليجدوا سيدة فاق جمالها أي جمال رأوه من قبل، وتبرع واحد ممن رأوها طمعًا في رضى الفرعون بإخباره وإغرائه أن يأخذها لنفسه، فطلب سيدنا إبراهيم من سارة أن تقول لأهل مصر إنها شقيقته؛ لأن فرعون لن يتركه حيًّا لوعلم أنها زوجته، ولكن لو صدقوا أنها شقيقته فسوف يتركونه على قيد الحياة، وهنا كان إبراهيم صادقًا فلقد كانت أخته في الدين والإنسانية أيضًا، ذهبت سارة للقصر ورغم قلق سيدنا إبراهيم إلا أنه في قرارة نفسه كان يعلم أنه يسلمها لله لا لفرعون، كانت ثقته في ربه كبيرة ويعلم أنه لن يتركهما أبدًا، ثم ذهب إلى مخدعه وقضى ليلته يصلي.

دخلت سارة بعد أن أعدوها وزينوها بالملابس الفاخرة والجواهر الغالية على الملك الذي انبهر بجمالها، ولكنه ما إن حاول الاقتراب منها حتى دعت:

«اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط على الكافر»، هنا لم يستطع الرجل الحركة وكأنه أصيب بالشلل، فطلب منها أن تدعو ربها كي يستطيع الحركة ففعلت، فحاول مرة أخرى الاقتراب منها وفشل مرة ثانية، وكررها مرة ثالثة، إلا أنه وعدها هذه المرة ألا ينكث وعده، فدعت ربها فاستجاب لها، هنا أعادها إلى سيدنا إبراهيم وأهداها هاجر كي تكون جارية لها، ويقال إن الله سبحانه وتعالى قد جعل سيدنا إبراهيم يرى ما كان بين سارة والملك كي يطمئن قلبه.

كانت هذه أول تجربة قوية تمر بها السيدة سارة، وحياة سيدنا إبراهيم مليئة بالاختبارات، لم يترك الله أمرًا من أمور حياته إلا واختبره بها، حتى أنه رمي في النار ورفض طلب العون إلا من الله، فحول النار إلى برد وسلام، نارًا أخرى عاشها سيدنا إبراهيم عندما ذهبت سارة إلى الملك.

وبعد عودة سارة إليه امتلأ قلب إبراهيم الذي كان يشتعل بردًا وسلامًا.

قيل الكثير عن السيدة سارة، ولعلها واحدة من أكثر النساء حظًا في التاريخ الذي ظلم النساء كثيرًا، فكم من سيدات لم يذكرن؟ وكم من سيدات لم تعرف أسماؤهن أصلاً. أمهات أو زوجات، وفي

اعتقادي أن حب سيدنا إبراهيم عليه السلام لها خلدها كما خلد حب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام السيدة خديجة والسيدة عائشة مع بقية أمهات المؤمنين طبعًا رضي الله عليهن جميعًا وأرضاهن، رافقت سارة إبراهيم في ترحاله، كانت شديدة الإيمان به شديدة الحب له، ولكن كان ينقص حياتهما طفل، وعد الله سبحانه إبراهيم بذرية منه، ولكن لم يقل متى، فكان اختبار جديد لسيدنا إبراهيم الذي تعرض في حياته لاختبارات لم يختبرها نبي غيره، عاداه أهله وألقي في النار حيًّا وحرم من الأطفال وطلب منه بعدها ذبح ابنه الذي رزق به بعد طول انتظار، واختبارات كثيرة أخرى تتطلب إيمانًا ويقينا أقوى من قدرات البشر العادية، وبسبب قوة إيمانه هذه ولأنه يعتبر أبا الأنبياء جميعًا طلب الله منا أن نردد في كل صلاة «اللهم صلّ على محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم»، واختبر الله سيدنا إبراهيم في الأولاد، في مجتمعات تعتبر أن أهم ما في الزواج هم الأولاد، كانت تنقص حياتهما هذه النعمة، وصبرا، صبرا طويلاً، سنوات عديدة، وكانت سارة بعد زيارة مصر وما حدث فيها مع ملكها قد اصطحبت معها هاجر كجارية لها كهدية من الملك.

لم تيأس سارة من رحمة الله أبدًا، وكان لا بد لهذه السيدة المؤمنة الصابرة المحتسبة من مكافأة لهذا الصبر الجميل، وفي يوم مبارك من أيام الله سبحانه وتعالى التي يغدق فيها بكرمه علينا، جاء إلى سيدنا إبراهيم ضيفان رجلان عليهما لباس أبيض شديدا الوسامة كما لم ترَ عين قط، وكان يُعرف عن سيدنا إبراهيم شدة الكرم حتى أنه لم يأكل في حياته قط طعامًا بمفرده.

فنادى زوجته: (فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) [الذاريات: ٢٦]، وفي آية أخرى (فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) [هود: ٦٩].

والعجل الحنيذ هو العجل المشوي على الحجارة، واستخدام تعبير «ما لبث» هنا له معنى السرعة أي أن السيدة سارة لم تأخذ وقتا طويلا في إعداد العجل وشيّه، كل هذا فعلته السيدة سارة وهي في التسعين من عمرها ويقال أكثر، كانت امرأة نشيطة تكرم ضيوفها وتعين زوجها على خدمتهم وإكرامهم.

جهزت السيدة سارة طعام الضيوف، ولكن يدهم لم تمتد إلى الأكل، فأوجس منهم سيدنا إبراهيم خيفة؛ فقد كان من المعروف أن الضيف الذي لا يأكل طعام المضيف يضمر له الشر، أو ينوي لأصحاب البيت السوء، ولما رأى الرجلان (ويقال ثلاثة) توجُّس سيدنا إبراهيم منهما كشفا عن شخصيتهما الحقيقية، وأخبراه أنهما ملكان أرسلهما الله سبحانه إليه ليبشراه بأن الله بعثهم إلى قوم لوط لإهلاكهم، كما بشراه، بقدوم إسحاق.

تعجبت جدًا السيدة سارة، كيف لها أن تنجب وقد أصبحت في التسعين من عمرها عجوز عاقر؟ فكان رد الملائكة بسيط، إن الله على كل شي قدير، وهو سبحانه كذلك، وقد كان.

بعد سنين من الشوق للأطفال، وبعد أن عانت الغيرة من حمل ضرتها هاجر وإنجابها لطفل، كافأها الله على صبرها، وكان إسحاق الذي يعتبره اليهود مع يعقوب أنبياءهم.

عاشت سارة حتى سن ١٢٨سنة، وماتت قبل زوجها إبراهيم، ودُفنت في مغارة المكفيلة التي اشتراها سيدنا إبراهيم من رجل يدعى عفرون الْحِثِّي لتكون مقبرة لأسرته، ودفن فيها إبراهيم وسارة وابنهما إسحاق ورفقة زوجته وليئة ويعقوب، وهذه المغارة الآن ضمن الحرم الإبراهيمي في الخليل، الذي يشبه بناؤه بناء أساس الحرم الشريف في القدس، ويغلب على الظن أنه أقيم في أيام هيرودس.

وكأن الله بهذا أراد تكريم السيدة سارة بأن يعرف الناس مكان مدفنها، فيزورونها ويترحمون عليها، رحم الله زوجة سيدنا إبراهيم الجميلة المحبة الصبورة العابدة الكريمة.

٤ - السيدة هاجر

رغم أن شعائر العمرة مرتبطة بها وبسيدنا إبراهيم، إلا أن المعلومات الخاصة بأصولها وطفولتها وحياتها قبل ذهابها مع خليل الله قليلة جدًا، يقول ابن كثير إنها كانت أميرة من العماليق، وقال آخرون إنها من الكنعانيين الذين حكموا مصر قبل الفراعنة، وأنها بنت زعيمهم الذي قتله الفراعنة، ومن ثم تبناها فرعون، وقيل إنها كانت شقيقة الملك المصري سنوسرتو، عندما أتى الهكسوس ليحتلوا مصر استحوذوا على بلاط الملك ومن فيه فقتلوا الرجال واستبقوا النساء، وجيء بالسيدة هاجر إلى بلاط ملك مصر ولكنها كانت مستعصمة ذات شرف ومكانة، حماها الله منذ صغرها، فيقال إن الملك الذي كان عاشقا للنساء حاول التقرب من السيدة هاجر ولَم يستطع لأن الله حماها وحصنها.

اختلف الباحثون حول معنى اسم هاجر، إذ ورد في التوراة أنه اسم سامي معناه «هجرة»، ويربط البعض اسم هاجر بقبيلة «الهاجريين» وهم سكان في منطقة بئر السبع يرددون دومًا أنها تنتمي إليهم، ها - جر: (ها) بالهيروغليفية معناها زهرة اللوتس، وكلمة (جر) معناها أرض جب بالمعنى التوراتي (مصر) أي اسمها زهرة اللوتس وكنايتها المصرية، يقال أيضًا إن الفرعون عندما رأى ما رَآه من السيدة سارة شعر أنها محمية من الله لأن دعاءها كان يُستجاب في كل مرة كان يحاول الاقتراب منها، لذا وهبها السيدة هاجر، وقال لها هي أميرة وأنا أهبها لك.

وأصبحت السيدة هاجر والسيدة سارة معًا، علّمت فيها زوجة نبي الله أمتها كل ما يخص الدين، لقنتها وحدانية الله ومبادئ الدين الحنيف، عاشتا فترة دون مشكلات بعد عودتهما إلى فلسطين، إذ كان سيدنا إبراهيم قد شعر أن الحياة في مصر مع ملك مثل هذا لن تكون آمنة لهم، كانت سارة تصغر إبراهيم بعشر سنوات، وكانت قد بلغت سن اليأس من الإنجاب، ولأنها تعلم أن الله قد بشر سيدنا إبراهيم بذرية من بعده فقد ارتأت أن تهب له أمتها هاجر كي تلد له طفلا، تصرف يدل على حب شديد وإيثار كبير، وهبتها له لذا تعتبر السيدة هاجر ملك يمين سيدنا إبراهيم ولَم يتزوجها حسبما يقول بعض العلماء.

إلا أنها رغم هذا لم تستطع أن تمنع نفسها من الغيرة، وبمرور الأيام كانت غيرة سارة تتعاظم، وبات إبراهيم عليه السلام في حيرة من أمره، كيف يستطيع التوفيق بينهما وهو في هذا العمر شيخ كبير وفِي قلبه ميل شديد لسارة ولا يستطيع إغضابها؟ وخافت هاجر من غيرة سارةعلي جنينها، وبدأت سارة تعتبر أن حمل هاجر يعني تفضيل إبراهيم لها لأنها ستكون أم أولاده، لنا أن نتخيل إحساس سارة المرير، هي أحبت رجلا حبًا شديدا ومشت وراءه أينما ذهب، سارة الجميلة التي يتحاكى الجميع بأنها أجمل نساء العالمين عقيم، رحمها غير قادر على الإنجاب.

لنا أن نتخيل إحساسها بالقهر وهي تنظر إلى هاجر وبطنها يكبر يومًا بعد يوم، ولنا من ناحية أخرى أن نتخيل خوف هاجر؛ فهي تعلم مدى حب إبراهيم لسارة وتخاف جدًا إن ولدت أن تعود جارية أو أن تأخذ منها سارة ابنها.

كلها مخاوف طبيعية ومشاعر بشرية.

من قال إن زوجة نبي لا يحق لها أن تغار؟ ومن قال إن والدة نبي وفِي منزلة زوجة نبي لا يحق لها أن تقلق؟ نحن بشر، ومن حكمة الله تعالى أن رسله وأنبياءه قد عانوا مثل بقية البشر، ولكن

بإيمان أقوى وأشد، حتى زوجاتهم وأولادهم تعرضوا لاختبارات قوية.
ووضعت هاجر إسماعيل، وهنا هاجت وماجت السيدة سارة، لم تستطع أن تتحمل رؤية مَن نجحت فيما أخفقت هي فيه، ومع مَن؟ مع زوجها، الذي تحبه وتغار عليه غيرة شديدة، فأقسمت ألا تبقى جاريتها معها في مكان واحد، وقد كان.
أخذ سيدنا إبراهيم السيدة هاجر وسار بها وبطفلهما متجهًا إلى الجنوب، وسارا طويلاً من فلسطين إلى مكة، وكانت عبارة عن صحراء جرداء يقيم بها بعض البدو، وصلا، وأمرها بالبقاء، ثم تحرك سيدنا إبراهيم، تاركًا السيدة هاجر وطفلهما، فذُعرت «هاجر» وخافت، وركضت وراءه تسأله: «أتتركنا في هذا الوادى المقفر غير ذي الزرع؟!».
كان قلب سيدنا إبراهيم يتألم بشدة، فهو يترك وليده، الذي طال انتظاره له في كوخ صغير مع والدته، ومعهما فقط جراب تمر وقربة ماء، لذا لم يلتفت إلى «هاجر» حين نادت عليه، وأكمل سيره دون أن يجيبها، رددت سؤالها، وهي تجري وراءه، وهو لا يجيب، وعندما ابتعد قليلاً نادت عليه، وقالت: «هل أمرك الله أن تتركني أنا وابنك في هذا المكان المقفر؟!»، أجاب مكملاً سيره: «نعم».
هنا قالت «هاجر» واحدة من أقوى عبارات اليقين التي قيلت عبر التاريخ: «إذن، فلن يضيعنا».
وبعد أن ابتعد إبراهيم، رفع يديه للسماء، ودعا ربه ألا يتركهما وحدهما، وأن يرسل إليهما قلوبًا رحيمة، وأن يرزقهما من عنده ثمرات، وأكمل سيره إلى السيدة سارة في أرض كنعان، التي كانت تضم سوريا الكبرى والأردن وفلسطين.
نفدت مؤونة «هاجر»، وبدأ ابنها يبكي، وأحست أنه يحتضر، خافت، ارتعدت، لنا أن نتخيل مشاعرها كأم ترى ابنها على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وحيدة مهجورة من الجميع، لا تملك قوتًا أو ماء، ولا تعلم كيف تتصرف، كانت تشعر بإعياء شديد، فآخر ما كانت تملكه من ماء أعطته للطفل، كان الوضع أقسى من قدرتها على الاحتمال، فبدأت تجري بين الجبلين، بين الصفا والمروة، تصعد إلى الجبل وتهبط لتركض في السهل بين الجبلين، جرت سبع مرات بين الجبلين، ثم وقعت على الأرض من الإعياء.
وهناك أكثر من رواية في هذا الموضوع، رواية تقول إن هناك طيرًا حام على المكان، ثم حط وبدأ ينقر، ثم يحفر، والرواية الثانية تقول إن الطفل وهو يبكي كان يرفس بقدميه، فخرج من الأرض ماء، ورواية ثالثة تقول إن السيدة هاجر حين وقعت رأت سيدنا جبريل عليه السلام يضرب بقدمه الأرض، فظهر من ضربته الماء السلسبيل العذب، وهو ماء زمزم، فجعلت أم إسماعيل تغرف منه بسقائها، والماء يفورُ، وقال لها جبريل: لا تخافي الضياع، فإن لله ههنا بيتًا، وكان يقصد الكعبة.
على كلٍّ، أيًا كان ما حدث، وحكايات التاريخ دومًا متنوعة، فإن النتيجة واحدة، ماء «زمزم»، التي نشرب منها حتى يومنا هذا.
وتحققت دعوة سيدنا إبراهيم، إذ ما إن علم الناس بوجود البئر حتى أتوا واستقروا في المكان وآنسوهما، ولم تعد الصحراء صحراءً، بل أصبحت أكثر مناطق العالم ازدحامًا، ولو فكرنا قليلاً لوجدنا أن أكثر بقاع الدنيا قدسية للمسلمين قد بدأت مع امرأة، جارية كانت أم أميرة لا يهم، المهم أنها امرأة وحيدة كانت سببًا في إعمار مكان يعتبره كثيرون قلب الكون، وهل المرأة في نهاية الأمر إلا قلب؟

٥ ـ قطورة زوجة سيدنا إبراهيم

هناك العديد من الروايات تشير إلى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد تزوّج بعد وفاة السيدة سارة بامرأتين، الأولى اسمها قطورة بنت يقظان، وهي امرأة كنعانية، أصل اسمها عبراني، ويُلفظ «كتوراه» ويعني «العطر» أو «البخور».

تم تعريب الاسم بعدة أشكال، ففي التوراة العربية هي «قطورة»، تقول بعض الكتب اليهودية إن قطورة هي نفسها هاجر، وأن سيدنا إبراهيم بعد وفاة السيدة سارة قد تزوجها وغيرت اسمها، ولكنه قول ضعيف جدًا، ذكرها الطبري وقال إن اسمها «قنطورة»، أو قطورة بنت يقطن وهي من الكنعانيين، ثم ذكر لاحقًا أنها قنطور بنت مقطور من العرب العاربة، اسمها الشائع في العربية هو «قطورة».

كانت سرية لسيدنا إبراهيم، ثم تزوجها بعد وفاة السيدة سارة، لذا فهي تذكر أحيانًا بالسرية وأحيانا بالزوجة في العهد القديم للتمييز بينها وبين السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم التي ولدت له سيدنا إسحق ابن البشارة.

قطورة أنجبت ستة أبناء وأبعدهم أبوهم عن ابنه النبي إسحاق بعد أن منحهم عطايا، حسب عادات ذلك الزمان، أهمية قطورة أن المورخين يعتبرون أولادها مؤسسي القبائل العربية التي عاشت في شرق وجنوب فلسطين، ويعتقد الكاتب اللاهوتي جونجيل أن القبائل الإفريقية تنحدر من أبناء قطورة وإبراهيم، وذكر المورخ اليهودي هاكوهين أن أبناءها هاجروا شرقا وأصبحوا آباء الديانات الهندوسية والبوذية، كما يعتبر البعض أن أبناء قطورة الستة هم أجداد القبائل العربية التي استوطنت جنوب وشرق كنعان.

وذكرالطبري أن الميدانيين الذين عاشوا على الحدود بين الجزيرة العربية وبلاد الشام هم من سلالة ابن قطورة «مديان»، كما يعتبر البهائيون أن مؤسسهم من ذرية هاجر وقطورة، إضافة لما سبق ففي القرن الثامن عشر ذكر في بعض الكتب أن قطورة هي أم الأفارقة، واستعملوها كدلالة لشرح مقاربة الطقوس الأفريقية بالطقوس اليهودية، ويجب أن أنوّه إلى أني أذكر كل ما أقرأه على لسان المؤرخين، إلا أن الحقيقة المطلقة في النهاية طبعًا لا يعرفها إلا الله، ولمن يتابع ما ذكر عن السيدة قطورة وهو أقل من القليل يعرف أنها تزوجت سيدنا إبراهيم وهو رجل مسن، كان فرق السن بينهما كبيرًا، كان وحيدًا بعد وفاة حبه الكبير السيدة سارة، حزينا، فتزوج قطورة كي تكون له مؤنسًا وكي تقوم على خدمته، ورضيت بالزواج منه وهي تعلم أنها ستقوم بدور الابنة البارة لا الزوجة أو الحبيبة، قامت على خدمته على أكمل وجه، وأنجبت له أولادًا تفرقوا في العالم، فأصبح سيدنا إبراهيم بهذا ليس أبا الأنبياء فحسب، بل أبًا لأمم خرجت من نسله، ومثل نساء كثيرات ظلمت قطورة بعدم توفر المعلومات عنها، فتحية لهذه السيدة التي عاشت متفانية راضية وأنجبت وربت واعتنت بنبينا الكريم، ورغم هذا لا يعرف كثيرون منا حتى اسمها.

٦ ـ امرأة لوط عليه السلام والهة

منذ بدأت الكتابة وأنا حريصة على اختيار شخصيات نسائية أتحدث عنها، لماذا؟ ربما لأننى امرأة وبالتالي دومًا أتعاطف مع بنات جنسي وأنحاز لهن، وربما لأنني من المؤمنين بأن التاريخ قد ظلم النساء ظلمًا شديدًا، واهتم بالذكور، وكأن كاتب التاريخ يجد حرجًا في الحديث عن امرأة، حتى لو كانت زوجته أو ابنته أو زوجة قائد عظيم أو والدته.

كذلك فالعثور على معلومات بالنسبة لي أمر شديد الصعوبة، وعندما لا أكون متأكدة أو أمتلك أكثر من مصدر تجدني أستخدم أفعالا من نوعية: ذكر أو يقال، واليوم وكل عام وأنتم بخير ونحن في أول يوم من الشهر الكريم سوف أتحدث عن زوجة سيدنا لوط واسمها والهة، وجاء ذكرها في القرآن الكريم على اعتبار أنها من الغابرين، كانت سيدة سيئة لم تؤمن بزوجها ولا بدعوته ولاقت جزاءها، ولكن بداية فلأقل لكم إن سيدنا لوط هو ابن هاران وهو أخو سيدنا إبراهيم لأبيه تارخ أي آزر بن ناحور، وهو سلالة سام بن نوح عليهم السلام.

أم سيدنا لوط كانت أخت والدة إبراهيم عليه السلام، وهي ابنة لاحج، ويقال إنه كان نبيًا ولكن لم يرسل إلى أمة بعينها، ولوط هو أخو سارة زوجة سيدنا إبراهيم لأمها، ولد سيدنا لوط عليه السلام في: كوثار «وهي قرية من قرى الكوفة في العراق وعاش في زمن سيدنا إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، كان تقيًا ورعًا صبورًا طائعًا لله ناصحًا لقومه الذين كانوا أول من اشتهى الرجال دون النساء، كانوا يتركون نساءهم ويمارسون الفاحشة بينهم، وإذا ما أتى ضيف اعتدوا عليه وأجبروه على ما يقومون به، حاول معهم لوط كثيرًا إلا أنه لم ينجح، وكان قد هاجر مع نبي الله إبراهيم لمّا ضايقه الكافرون في أرضه في العراق واستقر لوط في سدون بالقرب من عامر على شاطئ البحر الميت فيما يعرف اليوم بالأردن.

وكان أهل سدوم قومًا بخلاء وأطلق عليهم لقب «أهل المؤتفكة» لأنهم كانوا كما سبق أن قلت أهل فساد ولغو يأتونه بحضور النساء والبنات، ورغم تكرار نصح لوط لقومه إلا أنهم لم يتعظوا بل واصلوا وغالوا في أفعالهم، فأرسل الله ملائكة لإنزال العقوبة على أهل سدوم، زاروا أولا إبراهيم عليه السلام ورفضوا تناول الطعام الذي أعده لهم وهكذا عرف أنهم ملائكة ثم ذهبوا إلى لوط الذي تضايق جدًا خوفًا مما ينوي أهل بلده لو علموا بقدومهم فعله بهم، وحاول أن يتحايل ويتحاشى استقبالهم، وبعدها أن يصرفهم، إلا أنه لم ينجح، فقد طلبوا منه صراحة أن يستضيفهم عنده فاستحى وأمر أهل بيته - زوجته وبناته - ألا يخبرن أحدًا من البلد، بل قال لزوجته: «إن لم تخبري قومك فسوف أسامحك على ما بدر منك من أذى تجاهي فيما مضى».

فوعدته، وهنا تفاجأ بما فعلت هذه السيدة التي عاقبها الله عقابًا شديدًا فيما بعد، كانت على دين آبائها وكانت متفقة معهم على إشارة تخبرهم بها لو جاء ضيف يزور زوجها، فما كان منها بعد أن وعدت إلا أن أوقدت نارًا فوق سطح منزلها، وهي الإشارة المتفق عليها فتوافدوا، ولم ينجح في إقناعهم بالذهاب واحترام ضيوفه، بل كان يدفعهم عنهم حتى تعب، وهددهم بعذاب شديد من الله، فسخروا منه بل طالبوه بإنزال العذاب عليهم، وأوى حزينا إلى ركن في بيته فطمأنته الملائكة وعرّفوه أنهم رسل الله تعالى وأمروه بأن يسري بأسرته ليلا، إلا أنهم طلبوا منهم عدم النظر إلى الخلف، ومن نظر كان من الغابرين.

وأبلغوه أن زوجته ستكون منهم، وخرج لوط وابنتاه دون أن يلتفتوا، وخرجت امرأته معهم، وبينما هم في الطريق جاءت الصيحة ونزل العذاب بأهل سدوم، فصرخت امرأة لوط «وا قوماه» فسقط عليها حجر ألحقها بقومها، ويقال إن سدوم وعمورة ومدنا أخرى كان يقطنها قوم لوط أصبحت تحت الأرض بحوالي ٤٠٠ متر، وهي ما أصبح يطلق عليها اليوم بحيرة لوط أو البحر الميت؛ لأنه لا يعيش فيه الأسماك أو الأنواع البحرية، بل يطلق عليه في الكتب القديمة اسم البحيرة النتنة، والاكتشافات الأثرية توصلت إلى كهف طبيعي فيه نبع يعود إلى العصر الحجري.

ويُعتقد أن النبي لوطًا كان يعيش في العصر البرونزي أي حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد بنى المسيحيون على باب الكهف أو المغارة كنيسة وديرًا، ويعتقد أن نبي الله لوطًا كان يعيش فيه وأولاده بعد دمار هذه المدن، إذ ولد ابناه «عمون» و«موآب»، وفي منطقة البحر الأحمر تمثال لامرأة تنظر إلى الخلف، يقال إنه لزوجة لوط عليه السلام، وإن كان الأمر ليس بمؤكد، ويتساءل البعض كيف لزوجة نبي أن تكون خائنة؟ وهنا للعلماء تفسير، فقد كانت خائنة بمعنى أنها تبطن غير ما تظهر إلا أنها لم تكن زانية، هي كانت منافقة كافرة إلا أنها لم تكن أبدًا زوجة نبي زانية، لماذا صبر عليها سيدنا لوط؟

سؤال آخر ربما لأنه كان يأمل في صلاح حالها، وربما لأنها كانت لا تفصح دومًا عما في مكنونها، ولوط عليه السلام مذكور في جميع الكتب السماوية، وحكاية العذاب الذي لحق بسدوم وعمورة من أمطار بالنار والكبريت وهلاك زوجته مذكور أيضًا، الفرق الوحيد أنه بالنسبة للديانتين المسيحية واليهودية فإن لوطًا كان رجلاً بارًا، أما بالنسبة لنا فهو نبي عليه السلام وزوجته نموذج مختلف من نساء الرسل، إنهم بشر يعانون مثلما يعاني البشر، الفرق في قوة الإيمان وكثرة المهام، والدعوة.

٧ - زوجتا سيدنا إسماعيل

عندما نذكر طاعة الوالدين فأفضل مثل يضرب هو سيدنا إسماعيل عليه السلام، منذ ولادته وهو يقاسي ويُختبر هو ووالده سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء عليهما السلام، حملته أمه السيدة هاجر بعد ولادته وسارت أمه مطمئنة وراء زوجها الذي تركها في صحراء قفر، سؤالها الوحيد كان هل هو أمر من الله؟ فلما أجابها بنعم قالت إذن لن يضيعنا، وبقية الحكاية أنها أخذت تسعى بين الصفا والمروة بحثًا عن نقطة ماء إلى أن ضرب الطفل بقدمه الأرض لتتدفق مياه زمزم التي ما زلنا نشرب منها وندعو حتى يومنا هذا، سيدنا إسماعيل لم يكن كغيره من الشباب، وكان عليه السلام يقيم في مكة مع قبيلته التي استأذنت أمه السيدة هاجر بعد زمزم في العيش هناك، وكان على خُلق، فأعجب به القوم، ويختلف في اسم زوجة سيدنا إسماعيل الأولى، قيل إن اسمها عمارة بنت سعد بن أسامة، وقيل إن اسمها جداء سعد، وقيل حبى بنت أسعد بن عملق، وقيل ريبة أو ميريبة.

وأغلب الظن أنها مصرية مثل أمه السيدة هاجر، يقال إنها أنجبت لسيدنا إسماعيل أربعة صبيان وبنتًا هم: يتباجوث أو ينبابوث، كيدار، أدبيل، فيبيام، والبنية هي ماهالات، ويقال إنها تزوجت ابن عمها النبى إسحاق، وماتت السيدة هاجر، وأتى سيدنا إبراهيم يزور ابنه فلم يجده في منزله ووجد زوجته، فسألها عن أحوالهما فشكت إليه من ضيق العيش وشدته، فما كان من سيدنا إبراهيم إلا أن قال لها: «عندما يأتي زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له: غير عتبة بابك» ويعود سيدنا إسماعيل إلى منزله فتخبره زوجته بما كان بوصية الشيخ العجوز فأعادها إلى أهلها تنفيذًا لوصية والده.

ويتزوج بعدها إسماعيل من سيدة اسمها مانشوس ابنة مضاد الجرهمي، ويقال إنها من كنعان، لتنجب له ثمانية أولاد هم: ميشما، دوما، ماسا، حداد أو شداد، تيما، جيثور، نفيش، كدما أو كيديما، وزوجته الثانية مانشوس قيل إنها ابنة مضاض بن عمرو كبير قبيلة جرهم.

ويتكرر ما حدث في المرة الأولى؛ يأتي سيدنا إبراهيم لزيارة ابنه وأحفاده فلا يجده، ويجد زوجته فيسألها عن أحوالها، وهي لم تلتق به من قبل تمامًا كحال زوجته الأولى، فتكون إجابتها في خير وسعة، ويسألها عن طعامهم وشرائهم فتجيبه نأكل لحمًا ونشرب ماء، فيقول لها هنا سيدنا إبراهيم: عندما يعود زوجك قولي له أن يثبت عتبته، ويفهم سيدنا إسماعيل الرسالة ويحتفظ بزوجته هذه، وقد أتى القرآن الكريم على سيدنا إسماعيل ووصفه بالحلم والصبر، وقبل سيدنا إسماعيل كانت الخيل وحوشًا، إلا أنه كان أول من ركبها وانتمت إليه بعد أن دعا ربه بذلك، وهو أول من تحدث بلغة عربية فصيحة، وكان ابن أربع عشرة سنة، وعاش سيدنا إسماعيل مائة وسبعًا وثلاثين سنة.

ويروى عن عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي أنه قال: «شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حرّ مكة، فأوحى إليه الله أني سأفتح لك بابًا إلى الجنة إلى الموضع الذي تؤمن فيه»، ودفن سيدنا إسماعيل قرب والدته السيدة هاجر، ولد لإسماعيل كما ذكرت اثنا عشر ولدًا ذكرًا كانوا رؤساء قبائل، ومن نسله جاء العرب الذين يعرفون بالعرب المستعربة، سيدنا إسماعيل الصبور الحليم هو من شارك والده في رفع القواعد من البيت الحرام وطهّر معه البيت للطائفين والعاكفين والركّع السجود.

ولولا حكاية سيدنا إبراهيم مع زوجتي سيدنا إسماعيل لما عرفنا عنهما، فالتاريخ لا يتوقف كثيرًا أمام الزوجات والأمهات إلا عندما يكون في الأمر حادث جلل أو كبير.

٨ - رفقة زوجة النبي إسحق

يرى البعض أن كلمة «رفقة» مشتقة من الفعل العبري الذي يعني «ربك»، والذي يعني تقيد مرتبكًا، لذا فهي تنطق في أيامنا هذه ريبيكا، هي ابنة «بتوئيل» ومعناه «رجل الله»، وأمها «مِلكة» ومعناه «ملكة» أو «مشورة».

لزواجها من سيدنا إسحاق حكاية، ولكن قبل سردها نحكي حكاية النبي عليه السلام هو نفسه، ذُكِرَ الاسم بصيغة «إسحاق» في الكتاب المقدس، ومعنى الاسم «إسحق» هو «الضاحك»، إسحق هو ابن النبي إبراهيم من زوجته السيدة سارة، وُلِد في النقب، في منطقة بئر السبع على الأرجح حين كان أبوه قد بلغ السنة المائة من العمر تقريبًا، وحين كانت أمه قد بلغت ٩٠ عامًا من العمرتقريبًا.

أرسل الله سبحانه إلى إبراهيم ملكين ليبشراه بأن زوجته ستلد ابنًا، هنا ضحك سيدنا إبراهيم لأن أمرًا مثل هذا يصعب التفكير في تحققه، ولما سمعت السيدة سارة هذا الخبر ضحكت هي أيضًا لأنها لم تستطع توقع شيء من مثل هذا القبيل، ولما ولد الطفل قالت السيدة سارة إن الله قد جعلها تضحك وجعل كل جيرانها يضحكون لغرابة الحدث، لازم الضحك هذا الصبي من ساعة وعد الله به إلى ما بعد ولادته، لذا فقد قرر سيدنا إبراهيم أن يطلق على ابنه اسم «إسحاق» أي «الضاحك»، كبر إسحاق بين والديه حتى بلغ الأربعين من عمره.

ثم أراد سيدنا إبراهيم أن يأتي بزوجة لإسحاق، فأرسل إلى قومه في حاران أحد تابعيه ليحضر زوجة له من أهله ومن عشيرته، وكان إسحاق وقت زواجه يسكن في النقب، لم يهتم إبراهيم في معايير اختيار زوجة لابنه أن تكون غنية أو جميلة، إنما كان هدفه الأول أن تكون قوية ومؤمنة تعين ابنه في حياته الروحية، ولا تكون عائقًا له في الطريق؛ لأنه كان يعده وأخاه إسماعيل لأن يكملا مشوار النبوة بعده، وكان نصيب إسحق رفقة أو ريبيكا، امرأة جميلة المنظر والروح، كانت مصدر سعادة وفرح له في حياته، ولاختبار رفقة أو ريبيكا حكاية.

أرسل سيدنا إبراهيم أحد تابعيه إلى مدينة ناحور القريبة من حاران في شمال غربي الميصة في بلاد ما بين النهرين، وناحور مشتق من اسم القبيلة ككل، هذا وناحور يظهر كسلف لعدد من القبائل الآرامية، وصل التابع قرب بئر مياه فظهرت رفقة عند الماء، كانت قد جاءت لتستقي، فلفتت نظره، امتازت بجانب جمالها الجسدي بلطفها في الحديث ومروءتها، إذ ما إن طلب الرجل منها أن تسقيه ماء من جرتها حتى أسرعت وأنزلت جرتها على يدها لتسقيه وتطلب منه أن تسقي جماله دون أن يطلب منها.

عندما رأت عليه علامات الإرهاق، سارعت إلى خدمته كعادتها مع الغرباء، وبسبب هذه الروح المملوءة حبًا انطلقت رفقة من فتاة تعيش في بلد وثني لتصير زوجة إسحق، وأمًا ليعقوب الذي يعتبر أبا جميع الأسباط، بما تملكه من حب وكرم ولطف تم اختيار رفقة لتصبح زوجة إسحق.

وقد ظهر جمالها بحق حينما تقبلت عطايا عريسها التي كانت عبارة عن خزامة ذهبية في أُذنيها وسوارين ذهبيين في يديها.

وحظيت بما لم يخطر على بالها ولا كان يمثل شيئًا من أحلامها عندما أصبحت زوجة نبي وأم نبي وحماها نبي.

تركت رفقة أهلها واتجهت إلى حيث ينتظرها مصيرها، حياة جديدة برفقة زوج لا تعرف عنه شيئا، كل ما أخذته كان حلقا ذهبيًا علقته في أنفها وسوارين ذهبيين، ذهبت بعد احتفال كبير أقامته لها أسرتها، ودعت أمها وأخاها «لبن» وتركت بلادها بكامل إرادتها مصطحبة معها مرضعتها ومربيتها ديبورا.
وصلت رفقة أو ريبيكا كما تسمى في العهد القديم إلى منطقة بئر لاحاي، وجدت رجلا يصلي، نزلت من على ناقتها وسألت عّمن يكون هذا الرجل، منذ اللحظة الأولى أسرها جدًا الجانب الروحاني الذي رأته فيه، ولما أخبروها أنه عريسها غطت وجهها، وانتظرته حتى انتهى من صلاته ليصطحبها إلى خيمته ويتزوجها.
يعتقد اليهود أن نفس المعجزات التي صاحبت السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم ووالدة سيدنا إسحاق أثناء حياتها قد عادت للظهور مع رفقة بعد دخولها خيمتها.
أولها أن تبقى الشمعة مضيئة على مدار العام ابتداء من بداية شهر شباط فبراير حتى شباط فبراير التالي.
ثانيها أن تكون هناك بركة دومًا في ما تعجنه من خبز، وأن تظلل خيمتها دومًا سحابة تقلل من حرارة الشمس.
مراسم زواج رفقة وإسحق أصبحت تتبع في الأعراس اليهودية، قبل أن يقف العروسان أمام الحاخام يجب أن يشاركا في مراسم تسمى مراسم «الحجاب»، يصطحب شخصان العروس، وعندما تقترب العروس من عريسها عليها أن تغطي وجهها كما فعلت رفقة عندما رأت إسحاق قبل زفافها، بعدها يقوم والد العروس أو الحاخام الذي يُتم الزفاف بترديد الدعوات أو الصلاة التي قالتها عائلة رفقة قبل أن تتركهم عند الوداع الذي سبق تحركها.
تذكر الكتب القديمة أن سارة توفيت عندما كانت تبلغ من العمر ١٢٧ سنة، عندما كان إسحق في السابعة والثلاثين لأنها أنجبته، وهي في التسعين.
وتزوج من ريبيكا أو رفقة وهو في الأربعين. بقي الزوجان عشرين سنة دون إنجاب، كانا يصليان ويدعوان ربهما بحرقة أن يرزقها طفلا، واستجاب الله سبحانه بعد عشرين سنة انتظارًا ودعاءً عندما أصبح إسحق في الستين من عمره.
كان حمل رفقة صعبًا جدًا، كانت في صلواتها تتساءل عن أسباب ما تشعر به، إلى أن جاءتها رؤية أو نبوءة تخبرها أنها تحمل في رحمها طفلان يتصارعان وسوف يستمرالصراع بينهما مدى الحياة، وتقول النبوءة أيضًا أن الكبير سوف يخدم الصغير، وستكون هناك أمتان كل أمة تنتمي لواحد من الأخوين عندما تضعف أمة تقوى الأمة الأخرى.
عندما آن أوان ولادة رفقة خرج من رحمها أولا طفل شعره أحمر كثيف الشعر، وكان يمسك بكعب قدمه الطفل الآخر، أطلق على الأول اسم عيسو ومعناه كثيف الشعر، وأطلق على الثاني اسم يعقوب أي المتعلق بكعب أخيه.
تقول الحكايات إنهما في طفولتهما كانا يتشابهان كثيرًا إلى أن بلغا الثالثة عشرة من عمرهما، ثم تفرقت اهتماماتهما. اهتم عيسو بالصيد، بينما اهتم يعقوب بالعلم والتعلم.
هناك أكثر من رواية ذكرت في الكتب القديمة، إحداها تقول إنه عندما توفي سيدنا إبراهيم عليه السلام أراد سيدنا إسحق توزيع النبوة بين ولديه، فأعد يعقوب حساء عدس وذهب به ليقدم لوالده،

إلا أن السيدة رفقة، التي كانت تفضل عيسو بينما كان سيدنا إسحاق يفضّل يعقوب، ولأنها تعلم أن إسحق الذي كان نظره قد ضعف سوف يعطي النبوة لمن يقدم له الطعام.
أرسلت عيسو أولا على اعتبار أنه يعقوب، إلا أنه بعد اكتشاف إسحق لما حدث دعا ليعقوب أن تكون سلالته كلها من الأنبياء، وقد كان.
رفقة سيدة لا يعرف عنها كثيرون، تركت أهلها وأحبت زوجها وصبرت على تأخر إنجابها داعية راضية، أما ما كان من تفضيلها لعيسو على يعقوب فبقليل من الصراحة نقول إنه مهما حاولت الأم عدم التفرقة بين أولادها، إلا أن في قلبها دومًا يكون هناك واحد هو الأقرب لها، وعادة يكون الأكثر احتياجًا لها أو الأقل حظًا في الحياة، في النهاية، نحن بشر، وفِي كل امرأة رفقة.

٩ - ليا زوجة يعقوب الأولى

سيدنا يعقوب أو ياكوف كما تنطق بالعبرية اسمه يعني «ماسك كعب القدم»، ويُعرف أيضًا بإسرائيل، تحدث القرآن بشكل رئيسي عن علاقته بابنه النبي يوسف وصبره وحزنه على بعده، وجاء ذكر الكثير من تفاصيل حياته في سفر التكوين في العهد القديم.
تحكي الكتب اليهودية القديمة الكثير عن إسحاق ويعقوب ومعظمها يصعب تصديقه، وأنا هنا أروي ما جاء فيها للعلم فقط، فأنا كباحثة وكاتبة وجب على سرد المعلومات مع ذكر مصدرها. لذا أقول هذا من العهد القديم أو هذه المعلومة من الكتب القديمة، هذا هو الجهد البحثي وعلى المسلمين أن يصدقوا ما جاء في القرآن الكريم، واستعانتي بالعهد القديم في رواية بعض الأحداث يعود إلى قلة المصادر المتوفرة فيما يخص زوجات الرسل عامة، ولأن بعض الأنبياء تتوفر مصادرهم أكثر في كتب تابعة لدين معين.
من بين الحكايات اليهودية الغريبة العجيبة حكاية عيصو وأخيه يعقوب ولدي إسحاق بن إبراهيم، كان اليهود يخصون الابن الأكبر بالميراث كله سواء أكان مالا أو مُلكا أو حتى النبوة، لذا فمن المفترض حسب ادعاءاتهم أن يمنح إسحاق النبوة لابنه عيصو من بعده لأنه الأكبر، وذات يوم خرج عيصو للصيد، استغلت والدته رفقة غيابه فأرسلت يعقوب بدلا عنه إلى والده اسحق، وجعلته يرتدي جلد ماعز، فقد كان يعقوب أملس الجسد بينما كان عيصو مشعرًا بشدة، واستغلت رفقة أن إسحاق كان قد ضعف نظره لتخدعه بهذه الطريقة، وعلى ما يبدو - والأطباء قادرون على إعطائنا معلومات أكثر - فإننا نلاحظ أن إسحق كان نظره ضعيفًا، كذلك ابنه يعقوب بعد ذلك عندما يصف القرآن أن عينيه قد ابيضتا من كثرة البكاءعلى يوسف، نعود إلى الحكاية اليهودية العجيبة والتي تقول إن يعقوب دخل إلى أبيه الذي حرص على لمسه ثم قال له:
- «الصوت صوت يعقوب والملمس لعيصو..».
ودعا له أن يتسلم لواء النبوة من بعده، كل هذا جاء في كتب اليهود القديمة، وأذكر هذه الحكاية كي أدعو الناس ألا يصدقوا كل الأساطير التي يقرأونها وأحكيها هنا؛ لأنّي راوية وناقلة لما كتب، مهمتي ذكر ما كتب، ولكن على أن أعمل عقلي أيضًا، ومن هنا أدعو الناس إلى قراءة ما يريدون، ولكن مع وجوب إعمال العقل، وكلٌ يرجع إلى ما يقوله دينه. لذا ففي قصة الأخوين يعقوب وعيسو أستغرب، كيف لم يفكروا لمدة ثانية أن الخداع ليس من شيم الأنبياء؟! والنبي يعقوب في هذه الحكاية يقدمونه والعياذ بالله كرجل مخادع، ثانيًا هم بهذا يظهرون الله سبحانه وكأنه - أستغفر الله العظيم - يقبل أن يصبح يعقوب نبيًا عن طريق التدليس والخديعة.
وهناك حكاية أخرى تخص الأخوين يعقوب وعيسو جاءت في العهد القديم، أن عيسو عاد يومًا من الحقل جائعًا جدًا فعرض عليه يعقوب الطعام مقابل أن يتنازل له عن امتيازات الابن البكر، ووافق عيسو لأنه كان جائعًا، وقد جاءت في الكتاب المقدس آيات كثيرة حول هذا الأمر من بينها «وهكذا احتقر عيسو امتيازات بكوريته»: سفر التكوين. وجاء ذكر مميزات البكورية وهي: «مرتبة عليا في العائلة»، «وقيمة مضاعفة من الإرث» و»الاشتراع» «ومنصب في العائلة» وأيضًا «البركة الإبراهيمية»، كل هذا جاء في «سفر التكوين».

حكاية أخرى تظهر النبي يعقوب وكأنه كان والعياذ بالله شخصًا انتهازيًا وطامعًا في سلطة، وهو أمر يتنافى تمامًا مع أخلاق الأنبياء، النبي يعقوب الذي صبر وكان لا يتوقف عن الدعاء لا يمكن أن يكون بالصورة التي صورته بها كتب الْيَهُود القديمة.
بقية الحكاية كما جاءت في كتب يهودية مختلفة، تقول إن عيصو عاد من الصيد واكتشف ما حدث فأقسم على الانتقام من أخيه، وهنا خافت رفقة على ابنها يعقوب فأرسلته إلى خاله لبان عله يتزوج من إحدى ابنتيه ويبقى عنده بعيدًا عن بطش أخيه.
كان يعقوب قد ولد في أرض الكنعانيين في فلسطين وعاش فيها. وبعد تهديد أخيه عيسو له سافر عند خاله في أرض حران، وحران مدينة قديمة في بلاد ما بين النهرين تقع حاليًا جنوب شرق تركيا، يعتقد أنها المدينة التي استقر بها سيدنا إبراهيم بعد هجرته من آور المدينة السومرية الواقعة في جنوب العراق.
كان لخال يعقوب - واسمه لبان - ابنتان؛ ليا وراحيل، تصف التوراة «ليا» بأنها كانت لها عيون طيبة، إلا أن كتب اليهود تقول إن هذا الوصف يعني أن نظر ليا كان ضعيفًا جدًا، كان الناس يتوقعون بما يشبه النبوءة زواج ليا الكبرى من عيسو الولد الأكبر لإسحق، وزواج راحيل أختها من يعقوب الابن الأصغر، ولأن عيسو كان يعرف عنه عنفه ومغامراته فقد خافت ليا من أن تتحقق توقعات الناس بشأنها فباتت تبكي كثيرًا، داعية الله أن يغير من مصيرها، وقد استجاب الله، حسبما تقول كتب العهد القديم.
وصل يعقوب لبيت خاله لبان، وما إن وقع نظره على رحيل الابنة الصغرى حتى أحبها، كان حبًا من النظرة الأولى، فطلب من خاله أن يزوجها له، فاشترط عليه قبل إتمام الزيجة أن يقوم برعي الغنم سبع سنوات، فوافق، لاحظوا الرقم سبعة وهو رقم مقدس ولكن لا مجال للحديث عنه الآن.
وبعد سبع سنوات من الانتظار جاء اليوم الموعود ليحمل مفاجأة ليعقوب، ففِي يوم زفافه اكتشف أن خاله قد زوجه من ليا الابنة الكبرى، فلما سأله عن السبب أجابه:
- «ليس من عاداتنا تزويج الصغرى قبل الكبرى».
كانت المراسم قد تمت، حزن يعقوب وقبل ما طلبه منه خاله وأصبحت ليا زوجته. إلا أنه أصر على زواجه من راحيل، فاشترط عليه خاله أن يرعى له غنمه سبع سنين إضافيّة، ففعل وتزوجها، وجمع بين الأختين لمدة ٦ سنين، وكان ذلك جائزًا في الشرائع اليهودية القديمة، ثُم حُرّم بعد ذلك»، وأنجبت ليا ليعقوب ستة أولاد، وهم: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وإيساخر، وزايلون، وابنة واحدة كان اسمها دينا. ويهوذا أي الديانة اليهودية، هو جد الأنبياء الذين جاؤا فيما بعد عليهم جميعًا السلام داوود وسليمان والسيد المسيح.
عاشت ليا مع يعقوب مثالا للزوجة المحبة المطيعة، رغم ما حدث ليعقوب، إلا أن ليا تعتبر مثالا على أن الدعاء من شأنه أن يغير القضاء والقدر، تخيلت أنه قد كُتب عليها عيسو فدعت أن يغير الله قدرها فكتب لها العلي القدير الزواج من يعقوب، وأن تصبح أمًا لمجموعة من بني إسرائيل، بنظرها الضعيف وشكلها المتواضع وحب زوجها لأختها أكملت حياتها راضية، قدرها كان أن تتزوج نبيًا وتكون جدة مجموعة من الأنبياء، ولله في أقدارنا شؤون..

١٠ - راحيل زوجة يعقوب الثانية

إلى أي درجة يؤثر الحب في تكويننا الوجداني والعاطفي؟ كل الدراسات تقول إلى حد كبير، بل يعتقد الكثير من الأطباء أن للحب قدرة كبيرة على الشفاء من الأمراض، وأنا أقرأ وأبحث في تفاصيل قصة زواج يعقوب من راحيل ابنة لبان تعرفت على قصة حبهما، وراحيل أنجبت ليعقوب النبي يوسف أحب أبناء يعقوب لقلبه، والذي تسلم راية النبوة من بعده، وأنا أكتب الآن خطر ببالي سؤال أشرككم به: هل شدة حب يعقوب لراحيل كانت سببًا في نبوة يوسف؟ بمعنى فلسفي أدعوكم للتفكير فيه. هل يجب أن يخرج الأنبياء من رحم حب؟ أعتقد أن الإجابة هي نعم، والله أعلى وأعلم.

تزوج سيدنا يعقوب بن إسحاق، ابن إبراهيم والسيدة سارة عليهم جميعًا السلام مرتين، وكانت له اثنتان ملك يمين، زوجته الأولى هي ليئة أو ليا: وأنجبَ منها ستّة أولاد، والثانية التي أحبها حبًا كبيرًا هي راحيل: وأنجب منها سيّدنا يوسف عليه السلام، وهو أحبُّ الأبناء إلى قلبِ سيدنا يعقوب، وبنيامين وهو الابن الوحيد لسيّدنا يعقوب الذي وُلد في فلسطين.

وأنجب من الجارية زلفة ولدين؛ زيلفا هي جارية النبي يعقوب «عليه السلام» أنجبت له ولدين؛ وهما: جاد وعشير، وكانت جاريةً زوجته الأولى ليا بنت لابان، وهبتها ليعقوب، فقامت راحيل بدورها بإهدائه جاريتها «بيلها»، وكان قد أهدى لابان الجارية «بيلها» لابنته راحيل لتقوم على خدمتها، فوهبتها لسيدنا يعقوب لتلد له؛ لأنها كانت عاقرًا في البداية، فأنجبت له بيلها ولدين، وهما: دان ونفتالي، ومن ثم رُزقت راحيل بعدها بيوسف وبنيامين أقرب أولاد يوسف إلى قلبه.

وبذلك يتضح أنه كان لسيدنا يعقوب أربعُ نساء، وأنجب منهنّ اثني عشرَ ولدًا وابنة واحدة هي دينا، وقد خرج من صلب سيدنا يعقوب «بنو إسرائيل» وهو مصطلح من الكتاب المقدس اليهودي المسمى، «التناخ». يطلق هذا المصطلح على أبناء النبي يعقوب الاثني عشر، من نسائه الأربع.

بنو إسرائيل أيضًا يعرفون باسم «القبائل الاثنى عشر» وهي القبائل التي خرج منها اليهود إلى جميع أنحاء العالم، وحسب النص التوراتي فإن كلمة «إسرائيل» باللغة العبرية تعني «من يجاهد مع الله». كما جاء في التوراة: «فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوب بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». سفر التكوين.

نعود إلى راحيل، الزوجة الثانية لسيدنا يعقوب، أحب يعقوب راحيل، أو راشيل كما تُنطق في اللاتينية، وقع يعقوب في حبها منذ أن رآها للمرة الأولى، اشترط عليه والدها وهو خاله أيضًا أن يعمل سبع سنوات كي يزوجه إياها، فعمل كادحًا حتى جاء الموعد ليفاجأ بأن خاله قد زوجه من أختها الكبرى لأن العرف كان هكذا في ذلك الوقت، ولما أصر على راحيل قبل الأب أن يجمع بين الأختين مقابل سنين عمل جديدة.

ولكن لله اختبارات وأمورًا لا نفهمها نحن البشر، تمامًا مثل السيدة سارة جدة زوجها، لم يكن حمل راحيل بسيطا أو سريعًا، على عكس أختها ليا التي أنجبت بسرعة وعددًا كبيرًا من الأولاد وكأن الله أراد أن يعوضها عن حب يعقوب لأختها بأولاد كثر يشغلون حياتها وأيامها.

ولعلماء الدين تفسير لتأخر إنجاب سارة وراحيل بأمرين: أولهما أنه يعظم من إيمانهما وإيمان من هم حولهما بقدرة الخالق سبحانه وتعالى التي يجب أن نؤمن أنها تتجلى عندما يشاء سبحانه ومهما

كانت الظروف.
وثاني الأسباب أن يجعل هذا المولود الذي أتى بعد طول انتظار مميزا، وقد حدث، فقد رزقت سارة بولد أصبح نبيًا هو إسحق، ورزقت راحيل بيوسف الذي تسلم راية النبوة من بعد والده، صبرت راحيل كثيرًا حتى اعتقدت في وقت من الأوقات أنها عقيم، ولكن الله اختار لها التوقيت، فقد جاء حملها بعد أن رُزقت زوجة يعقوب الأولى ليا وجاريتا الزوجتين بالأولاد.
صبرت راحيل رغم غيرتها الشديدة إلى أن رزقها الله بيوسف، وعندما ولد يوسف قرر يعقوب العودة بعائلته إلى بلده مدينة الجليل في فلسطين.
ويحكي اليهود أنه عندما قرر يعقوب العودة إلى وطنه الأول فلسطين قامت راحيل بأخذ بعض التماثيل الذهبية التي كانت ملكًا لأبيها لابان لأنه كان يرفض دومًا إعطاءها إرثها عن أمها، أخذت التماثيل الذهبية دون أن تخبر أحدًا وخبأتها، عندما اكتشف لابان السرقة لاحقهم، غضب يعقوب بشدة عندما سمع التهمة الموجهة إليه، فدعا على من أخذ التماثيل بالموت، كانت راشيل أو راحيل وقتها في مرحلة الولادة فتعذبت كثيرًا ثم أسلمت روحها لله، وتركت يوسف وبنيامين اللذين أحبهما والدهما حبًا شديدًا نابعًا من حبه لوالدتهما.
دفن يعقوب راحيل بنفسه في منطقة الخليل في فلسطين، وكُتب عليه أن يعيش محرومًا من المرأة التي أحبها وأن تبقى معه ليا والجاريتان، وحرم بعدها من أحب أولاده له، يوسف ابن راحيل، وعاش حياته باكيًا يدعو الله أن يجمعه به، أقسى اختبارات سيدنا يعقوب كانت في حرمانه ممن أحبهم، ربنا لا تختبرنا فيمن نحب أبدًا.

١١ - أسينات زوجة سيدنا يوسف

قصة أسينات تجسيد حي للآية الكريمة «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم»، عندما طلب الملك، والبعض يعتقد أنه كان إخناتون أو أمنحوتب الرابع - ولا نستطيع أن نؤكد إلا لو كانت هناك إثباتات وحفريات - منها الموافقة على عريس رشحه لها ترددت.
أسينات هي ابنة كابوسيس كاهن الموحدين وكبير كهنة معبد آمون، اسم أسينات له أصل فرعوني وهو يعني هدية إيزيس، ومعناه أيضًا الفتاة الجميلة والمعطرة بالرائحة الطيبة، خطبها الملك وزوجته ليوسف.
وكان سيدنا يوسف وقتها وبعد تفسيره لرؤية حاكم البلاد يعمل على تحضير مصر لفترة المجاعة والقحط، كان مؤمنا موحدًا بالله وبدأت دعوته تنتشر.
وقد جعل هذا واضحًا منذ اللحظة الأولى عندما طلب منه تفسير الرؤية، وأجاب أن الله هو من أرسل الرؤية وهو من يضع تفسيرها على لسانه.
كان صعبًا على أسينات القبول بهذا الزواج في البداية، فالخاطب رجل غريب متهم بمحاولة اغتصاب زوجة العزيز وقضى في السجن أعوامًا، ولكن عندما يأتي الاختيار من الحاكم ليس هناك مجال كبير للتردد.
ولماذا أسينات هي من تم اختيارها من جانب فرعون مصر؟ لعدة أسباب.
أولا أنها ابنة الكاهن الأعظم وهي بالتالي تأتي من عائلة أرستقراطية معروفة.
ولأنها كانت سيدة متعلمة وليست جاهلة مثل الكثير من نساء عصرها.
ولأنها كانت على درجة كبيرة من الوعي تم اختيارها لهذه المهمة ووافقت.
كانت مهمتها الأساسية أن يقبل المجتمع المصري بيوسف كواحد منهم بعد أن أصبح مسؤولا عن خزائن الدولة، فهو الغريب الذي يحلق شعره ويرتدي القطن أو الكتان بينما كان العبرانيون يرتدون الصوف.
لذا كان زواجه من أسينات المصرية حلا مناسبًا جدًا وطريقة لقبول المصريين له.
وافقت أسينات وعاشت مع سيدنا يوسف حياة رغدة، فقد كان يوسف يحتل مركزًا مرموقا في مصر، وكانت مثالا للزوجة المطيعة، فقد كان صاحب الكلمة في بيته أيضًا، فهو من اختار اسمي ولديه مانيسا وإفرام اللذين يعتبرهما اليهود من مؤسسي القبائل العبرانية.
عاش الطفلان في سعادة أيّام الرخاء، ثم بدأت فيضانات نهر النيل تقل وبدأ الجفاف ينتشر، عندها بدأ الجميع يتحدثون عن تدبير وحكمة سيدنا يوسف وأحست أسينات بقدر زوجها.
ولها موقف من زليخة امرأة العزيز. فعندما رأت حالها وكيف كانت شديدة التعلق بسيدنا يوسف وكيف تدهورت صحتها بسبب حبها له وافقت على زواجها منه، حكاية أسينات باختصار مغزاها أن اختيارات الله لنا دومًا أفضل من اختياراتنا لأنفسنا.
فالغريب أصبح نبيًا ووزيرًا، بل والأهم أنه كان المنقذ الذي جنب البلاد ويلات المجاعة، وهو أجمل من خلق الله من الرجال، وإذا ما اجتمع جمال الشكل مع خلق النبوة تكون النتيجة يوسف عليه السلام، اختيار الله لأسينات ابنة الكاهن الأعظم.

١٢ - زليخة

أفرد الله سبحانه وتعالى سورة كاملة باسم سيدنا يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، ووصفت قصة سيدنا يوسف بأنها أحسن القصص، ربما لأن فيها أحداثًا عدة تعطي أملا كبيرًا لمن يوقن برحمة الله، فالطفل الذي ألقي في البئر أنجاه الله وتربى في بيت العزيز، كبر فأحبته الزوجة ولكن الله أنجاه من الغواية، سجن فأنقذه من الحبس تفسير رؤى بل ووصل إلى خزائن مصر، أساء إليه إخوته فعفا عنهم، انتظره والده كثيرًا فرده إليه.

وحكاية سيدنا يوسف بدأت برؤية ورؤى الأنبياء حق، وصاحبت حياته الرؤى في أوقات مختلفة وكانت دومًا سببًا لخير بعيد وإن أتى عسر قبله.

ألقى إخوة يوسف أخاهم في البئر لغيرتهم منه، حرم من أبيه الذي كان شديد التعلق به وأنقذه الباعة ليشتريه العزيز، عزيز مصر أي أحد وزراء الملك أو رئيس وزرائه، ولأن رحمة الله واسعة فقد ألقى محبة الصبي في قلب الحاكم، فطلب من زوجته أن تعامله كابن لهما، فداخل كل محنة منحة، حياته داخل منزل العزيز جعلته مضطلعا على الكثير من أحوال البلاد والنَّاس، وتكفل الله بالباقي عندما علمه تأويل الرؤى والأحاديث.

كان يوسف أجمل رجال زمانه، والمؤكد أيضًا أنه أجمل رجال كل الأزمنة، فقد خصه الله سبحانه وتعالى بالنصيب الأكبر من الجمال بين البشر، وأوتي نبلًا وذكاء في الحوار، كان فتى أمينًا، مستقيمًا عفيفا، شهمًا، وكريمًا، وأحبه سيده حبًا شديدًا.

ورأت امرأة العزيز يوسف يكبر أمام عينيها، تحادثه وتعرف تفاصيله، إلى أن اكتشفتى ذات يوم أنه ليس ابنًا لها، بل هو رجل وقعت في غرامه.

وأتوقف هنا أمام زوجة العزيز، تعارف على أن اسمها زليخة، وكتب في كتب العهد القديم أن اسمها راعيل بنت رماييل، هي زوجة عزيز مصر بوتيفار عند قدوم يوسف إلى مصر، ويعتقد أن بوتيفار كان وزيرًا أو كبير وزراء أثناء حكم أمنحوتب الثالث واحد من أعظم ملوك مصر، لم تكن مصرية لأن مصر كانت وقتها تحت حكم الهكسوس، لأن القرآن استخدم لفظ «ملك» ولم يستخدم فرعون كما كان عند الحديث عن فرعون موسى.

قصة حب زليخة لسيدنا يوسف لم تذكر فقط في القرآن، بل تحولت إلى ما يشبه الأسطورة، تقرأ عنها في بلاد عدة حتى في الهند والبنغال، وتجد الكثير من التفاصيل موجودة في كتب أهل الكتاب المسيحيين واليهود، وقعت زليخة في حب يوسف وقررت إغواءه، وأتوقف هنا لحظات قبل أن أحكي عن ما حدث يومها.

نعرف طبعًا أن زليخة كانت أكبر سنا من يوسف. قام البعض بعملية حسابية وتوصلوا إلى أن حادثة إغواء زليخة ليوسف كانت عندما كانت في في السادسة والثلاثين من عمرها، وكان هو في الخامسة والعشرين من عمره، ولو فكرنا بهدوء كيف تطور الأمر بينهما لوجدنا أن هذه السيدة كانت تعيش في قصر كبير مع زوج منشغل طوال الوقت، ترى يوسف يوميًا فهو في نهاية الأمر عبد عندها يعيشان معا تحت سقف واحد، لذا كان من المتوقع أن يحدث ما حدث.

الآية القرآنية الخاصة بهذه اللحظة واضحة جدًا:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) [يوسف: ٢٤].

نقف أمام «همت به وهم بها»، اتفق المفسرون على نيتها أنها كانت قاصدة المعصية، واختلفوا حول «هم بها» يفسرونها أنها كانت تنويها فعلا، أما هو فعندما «هم بها» فقد كان متجها إلى المعصية إلا أنه لم يفعل. وقال البعض الآخر أنه «هم بها» أي هم أن يضربها، وذهب فريق ثالث للقول إنه كانت بينهما مشاعر قبل هذا الحادث، أقرب التفاسير لقلبي فكرة أنه أراد ولكنه اعتصم أو عصم نفسه عن الخطأ، فجهاد النفس عن إغواء الشيطان من أعلى مراتب التقوى، ويتفق مع أن الأنبياء هم بشر ولكن معصومون.

يُعرف عن زليخة أنها كانت امرأة جميلة جدًا، وسيدنا يوسف رجل من بني البشر، ولكنه أيضًا نبي لذا أنقذه الله حين جعله يرى «برهان ربه»، يعتقد البعض أن «برهان ربه»، كان سيدنا يعقوب الذي ظهر لابنه ونهاه عن الاستمرار، ويقول مفسرون آخرون إنه رأى سيدنا جِبْرِيل، المهم أنه بعد أن هم بزليخة الجميلة قاوم ولَم يستسلم، اتقى ربه ولم يرتكب خطيئة.

ونكمل بقية المشهد: دخل زوجها عليهما فخافت وبادرت باتهام يوسف بأنه هو من حاول التحرش بها، هنا قرر العزيز أن يحقق بنفسه في الأمر. وكان حاضرًا التحقيق أحد أقارب زليخة الذي اقترح رؤية القميص، فإن كان ممزقا من الأمام فهذا معناه أنه هو المعتدي، أما إن كان ممزقا من الخلف فهذا معناه أنها هي التي جرت وراءه.

وبعد التقليب في القميص اتضح أنه حاول أن يفر منها فهو مقطوع من الخلف، وبالتالي فإن زليخة هي التي راودته عن نفسه، وهنا أتت الآية التي تقول «وشهد شاهد من أهلها»، فالشاهد الذي تسبب في إدانة زليخة كان أحد أقاربها وعرف الجميع أنها هي المذنبة.

ما الذي حدث بعد ذلك؟ كيف تعامل الوزير أو رئيس الوزراء مع هذا الأمر؟ فكر في مركزه وفي الأمر بحكمة. نظر إلى زليخة وقال لها: «إن كيدكن عظيم»، وطلب منها أن «تستغفر لذنبها إنها كانت من الخاطئين».

ثم نظر إلى يوسف وطلب منه نسيان ما حدث «أعرض عن هذا»، لم يرد الوزير أن تكون هناك فضائح واعتقد أنه هكذا ينهي الواقعة بسلام.

ولكن لا شيء يخفى مما يحدث في القصور، وانتشر الخبر بأن امرأة العزيز تراود الفتى عن نفسه، ووصلت الأقاويل إلى زليخة التي اعتكفت لفترة ثم توصلت لحيلة ترد بها على كل من تحدث عنها بسوء، أعدت مأدبة ضخمة وأمرت بوضع سكاكين حامية على مفارش بيضاء قرب التفاح ودعت كل السيدات اللاتي تناقلن سيرة حبها ليوسف لهذه المأدبة، وما إن رأت أولئك السيدات يوسف داخلا القاعة حتى قطعن أيديهن بالسكاكين التي كانت في أيديهن وغرقت المفارش البيضاء بالدماء.

وهنا قالت زليخة:

(وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ) [يوسف: ٣٢].

وهنا جاء رد يوسف:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) [يوسف: ٣٣].

لاحظوا أنه لم يقل مما «تدعوني هي إليه»، وهذا يدل على أنه كانت هناك أكثر من محاولة إغواء من أكثر من واحدة.
ومرة أخرى انتشر الخبر وعُرف أن زوجات الوزراء وزوجة رئيس الوزراء قد حاولن إغواء الفتى العبراني كما كان يطلق عليه، وتحول يوسف إلى خطر يهدد سمعة القصر، فكان لا بد من سجنه.
وبدأ اختبار جديد بعد اختبارات الأسر والبعد عن الأهل ثم ابتلاء العبودية وبعده الإغواء فالسجن، السجن رغم معرفة الجميع ببراءته، السجن لمجرد إبعاده وإسكات الألسنة، وبدات مرحلة أخرى في حياة سيدنا يوسف، ومرحلة مختلفة في علاقته بزليخة.
نتفق طبعًا أنه ليس هناك مبرر للخطأ، وأن الأعراف الاجتماعية والدينية تحدد ما يجب أن نقوم به وما لا يجب ولكن لنتذكر فقط أن زليخة عاشت معذبة بسبب حبها لرجل ليس كبقية الرجال بل هو نبي ابن نبي، قلبه معلق أولا بحب الله.
وبعد سنوات رأى الملك رؤية طلب تفسيرها لتكون الرؤى مرة أخرى طريق يوسف إلى مرحلة جديدة في حياته، حكى الساقي للملك عن الفتى الذي كان معه في السجن، وفسر له حلمه وصدق تفسيره، فطلب الملك إحضار يوسف، ورغم سنوات السجن إلا أن كرامة يوسف وإحساسه بالظلم جعلاه يرفض الخروج من محبسه حتى تثبت براءته، تعجب الملك لكنه أراد التحقق بنفسه، فأمر بإحضار النسوة اللاتي قطعن أيديهن وأحضر امرأة العزيز التي كانت قد خسرت الكثير من وزنها حزنا على سجن يوسف، وشوقا له، سأل الملك زليخة عّما حدث فما كان منها إلا أن اعترفت بكل شجاعة:
(أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) [يوسف: ٥١].
ولأنها كانت لا تزال تحبه فقد كانت حريصة على صورتها أمامه فقالت:
(ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) [يوسف: ٥٢].
بكت زليخة كثيرًا في حضرة الملك ثم قالت:
(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) [يوسف: ٥٣].
وفي هذه الآية اختصار لتصرف زليخة، هكذا تكون الحال عندما ننصاع للنفس الإمارة بالسوء، اللهم اجعل نفوسنا مطمئنة دومًا.
وتمت تبرئة يوسف الذي التقى بعدها بالملك، حادثه بألسنة عدة منها العربية لغة سيدنا إسماعيل والعبرانية لغة سيدنا إبراهيم، أعجب الملك بثقافة يوسف وذكائه بعد أن استمع إلى نصائحه، لم يكن يثق في الطبقة الحاكمة وفسادها فقرر تعيينه على خزائن مصر لينقذها من مجاعة كان من الممكن أن تودي إلى هلاك الكثيرين.
أما السيدة زليخة فقد عاشت تعاني من بُعد يوسف عنها، قضت سنين طويلة تبكي فراقه حتى فقدت نظرها، بل وتدهورت أحوالها المادية وقامت بتسريح خدمها إلا من تمسك بها ورفض تركها، ووصلت مثل يعقوب إلى درجة أنها أصبحت تشم رائحة يوسف إن مر قربها دون أن تراه.
وذات يوم قررت الذهاب إليه فسألها لمَ أصابها ما أصابها فقالت:
- «من حبي لك».
ولما رأى كيف أنها أصبحت شديدة القرب من الله تدعوه طوال الوقت سألها:
- «ما الذي تطلبينه من الله؟»

فأجابت:
- «أن يرد على بصري وشبابي وأن أكون بصحبتك في الدنيا والآخرة».
وقد كان، عادت شابة جميلة وتزوجها سيدنا يوسف، وعاشت بقية عمرها تقية ورعة تتقرب إلى الله بكل ما أوتيت من سبل، قصة زليخة شرحها الله سبحانه في القرآن عندما قال: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)[يوسف: ٥٣].
نحن بشر، تتحكم بِنَا نفوسنا، وزليخة امرأة أحبت رجلا فتحكمت بها نفسها ورغبتها ثم تابت، تابت عن المعصية لكنها لم تتوقف عن حب يوسف، فكان ألم الحب خير مطهر لذنوبها التي ارتكبتها.
البعض ينظر لها كامرأة منحرفة حاولت وهي المتزوجة إغواء شاب يعيش في بيتها معها ومع زوجها، ويصفها البعض الآخر بأنها امرأة شريرة؛ لأنها اتهمت يوسف بالاعتداء عليها، وتسببت في إدخاله السجن، وينظر إليها البعض الآخر بشكل مختلف، بأنها امرأة عانت سنين طويلة من العشق، تعذبت وتألمت آلاما لا تحتمل بسبب الوجد والشوق والحرمان، الأسهل طبعًا هو الحكم الظاهري على الأمور أنها امرأة خائنة عشقت شابًا وهي المرأة المتزوجة وحاولت إغواءه، هذه السيدة كانت أمام شاب ملك من الحسن نصف جمال العالم، نبي خلوق، أحبته وقاومت ثم ضعفت وحاولت إغواءه، لا شيء يبرر تصرفاتها إلا النفس الإمارة بالسوء، أما ما في القلب ففي القلب ولا أحد يملك أن يلومها عليه، أخطأت في حق يوسف وفي حق نفسها إذ كان عليها أن تكتم مشاعرها وتصمت، فلنتذكر أنها أخطات ثم تابت وخير الخطائين التوابون.
العشق مباح ومقدس، لا أحد يستطيع أن يحكم قلبه ولكن ما نحاسب عليه هو تصرفاتنا.، وقد وصف رسولنا الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام الحالات التي تشبه حالة زليخة في حديث نبوي شريف عندما قال: »مَن عشق فعفّ فكتَم فمات فهو شَهيد»، عفا الله عنا جميعًا.

١٣ - ليا أو رحمة زوجة أيوب

كل منا على كوكب الأرض مجموعة من الاختبارات، ولعل أكثر من يضرب به المثل في الصبر هو سيدنا أيوب، كثير منا يتوقف أمام هذا النبي الكريم ومعاناته وينسون السيدة التي شاركته كل هذه المعاناة دون أن تنبس حتى باعتراض، نتحدث عن مرض سيدنا أيوب بعد أن كان يتمتع بصحة جيدة، عن فقد أولاده جميعًا بعد أن كان لديه مجموعة، عن فقد ماله بعد أن كان غنيًا جدًا، وفِي كل هذا ينسون رفيقة الرحلة زوجته ليا أو رحمة، ولا أحد يتحدث عن معاناتها هي، اختلف المورخون في اسمها، قال البعض إن أيوب عليه السلام قد تزوج ليا بنت يعقوب عليه السلام وقيل: رحمة بنت ابن يوسف، وهو الأصح.

وقيل: إن رحمة بنت ميشا ابن يوسف عليه السلام. في كل الأحوال اجتمعوا أنها من سلالة الأنبياء، من سلالة سيدنا إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، بعيدًا عن حكاية ليا أو رحمة أو حمة بتفاصيلها، نتوقف أمام سؤال في كل مرة يرد اسم سيدنا أيوب يطرأ على ذهني، أجدني أفكر في ظروفها وأتخيل للحظات ما الذي عاشته هذه السيدة؟ ولماذا صبرت على كل ما مرت به؟، فتاة آتية من عائلة ميسورة إلى حد كبير تزوجت نبيًا مقتدرًا محبًا وأنجبت منه أولادًا وعاشت إلى جانبه حياة مستقرة خالية من الهموم، إلى أن كانت لحظة تغيرت الحياة بعدها تمامًا، مرض الزوج وفقد كل ما يملك، مات الأولاد ولظروف مرضه ابتعد عنه الناس لأنهم خافوا من العدوى، كم دامت مدة المعاناة؟ لا أحد يعلم على وجه التقريب، منهم من قال ثلاث سنوات ومنهم من قال سبعة ومنهم من قال ثمانية عشر عامًا، المهم أن الابتلاء لم يكن قصيرًا أو سهلا أو بسيطًا، وصبرت ليا أو رحمة.

والسؤال هنا، كيف صبرت؟ ولماذا؟ من المؤكد أن تكوينها النفسي والروحي كونها سليلة أنبياء قد ساعد كثيرًا، صبرت على فقد المال والأولاد والفقر ومرض الزوج ولَم تعترض، أضف إلى ما سبق أنها كانت امرأة جميلة تمتاز بشعرها الطويل الجميل، عندما ضاقت عليها الدنيا جدًا ولم تجد ما تطعم به زوجها قامت بقص شعرها وبيعه.

الحكاية التي سمعناها كثيرًا في التراث الشعبي عندما أسموها ناعسة وعلى الربابة غنوا حكايتها وتغنوا بمدى حبها وإخلاصها لزوجها.

امرأة تضحي بجمالها أيضًا إلى جانب راحتها وسعادتها، أي نوع من النساء كانت؟ وهل أحد أسباب صبرها على البلاء معاملة زوجها الطيبة لها؟ الإنسان منا ضعيف كيف أن هذه السيدة لم تتذمر أبدًا ولَم تتمرد؟ سهل جدًا علينا أن نقول عملت الواجب، ولكن كم فردًا منا يستطيع الصبر على ظروف كهذه؟ الكلام دومًا سهل ونحن نراقب من بعيد ولكن عندما نوضع في الاختبار لا نضمن أبدًا اجتيازه.

تحية لليا أو رحمة أو رحيمة وإن كان هذا هو اسمها ففيه الإجابة على السوال، ألا يقولون إن لكل منا نصيب من اسمه؟ ففي القلب الممتلئ رحمة تكمن الإجابة على السؤال.

أكثر ما نسمعه عندما تشتد علينا الهموم وتقفل الأبواب في وجهنا: اصبر، وارتبطت الكلمة بالنبي أيوب، وننسى في أوقات كثيرة زوجته التي عانت معه كما لم تعان امرأة غيرها، النبى أيوب هو

مثال حي لتحول النعم والصبر على زوالها سواء أكانت النعمة مالاً أو أولادًا أو صحة، لذلك أصبحنا نقول على من يطول صبره: صبر أيوب.
هو أيوب بن رعويا بن العيش بن إسحاق بن إبراهيم، وفي قول آخر ابن إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم، يقال أيضًا إن والدته هي ابنة النبي لوط، هو إذن من ذرية سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء كما جاء في القرآن الكريم: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)[الأنعام: ٨٤].
اشتهر سيدنا أيوب بأنه «الأوّاب» والكلمة من فعل آب أي العائد إلى الله أو كثير الذكر والتسبيح، أيوب كان رجلا غنيًا يمتلك الأراضي الواسعة في أرض حوران في بلاد الشام، ومعها كان يمتلك العبيد والمواشي، كان متزوجًا من رحمة الزوجة الجميلة التي اشتهرت بطول وجمال شعرها ولديهما الكثير من الأولاد، ولكن الابتلاء لا بد أن يصحبه صبر، لأننا جميعًا سوف نبتلى ومطالبون بالصبر كما جاء في سورة البقرة:
(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة: ١٥٥-١٥٧].
أصيب أيوب بمصائب متعاقبة، مرض بدنه حتى أنه يقال إنه لم يعد في جسده جزء غير سليم إلا قلبه ولسانه، وفقد أولاده كلهم، وخسر أمواله عندما احترقت أراضيه وزرعه، وانفض أهله وأصدقاؤه من حوله، إلا زوجته رحمة، وقيل إن اسمها ليا ابنة يوسف بن يعقوب، سليلة الأنبياء كانت أصيلة، صبرت كما لم تصبر امرأة، هي التي رأت عزًا وأولادًا ونعمة أصبحت تخدم في البيوت كي توفر طعامًا لزوجها المريض، ثمانية عشر عامًا يحمدان الله ويشكرانه رغم صعوبة الحياة.
ولأن النبي أيوب كان بشرًا فقد توقفت كثيرًا أمام الآية الكريمة التي جاءت على لسان سيدنا أيوب في القرآن الكريم: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) [ص: ٤١]، هذه الآية فسرها العلماء بتفاسير عدة أولها أن أي سوء يصيبنا هو من الشيطان لا من الله سبحانه، وإن كان هو وحده القادر على إزاحته، والسوء الذي أتى سيدنا أيوب حسب ما قال بعض المفسرين جاء بسبب حسد الناس..عندما كانت رحمة تسأله من أين يأتي بقوة صبره هذه كان يجيبها:
- «لقد عشت كثيرًا في رَفاهٍ من العَيش، بَنونَ وأموالٌ ومَزارعُ وحُقول، أفَلا أصبرُ على حياةِ الفقرِ بقدرِ ذلك؟ نحن جميعًا نعيش النعم وكأنها دائمة ولا نقدر على احتمال البلاء».
وبعد صبر طويل جدًا لا يقدر عليه البشر العاديون دعا أيوب ربه.
(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [الأنبياء: ٨٣]، الأنبياء، لتأتي الاستجابة من فوق سماوات سبع، بالوحي إليه أن يضرب الأرض فتخرج ماءً كما جاء في القرآن الكريم: (وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص: ٤١-٤٤].

واغتسل أيوب بالمياه فعادت إليه صحته وشبابه حتى أن زوجته التي كانت تنتظره لم تعرفه، فقال لها إن الله قد شاء أن ينهي محنتهما، وطلب منها أن تذهب وتغتسل هي أيضًا ففعلت، فعاد إليها شبابها وروت المياه المزارع التي احترقت فعاد إليها الزرع، ويقال إن المياه أعادت أولاد أيوب إلى الحياة أو رزقهما الله بغيرهم.
النتيجة واحدة أنه ليس هناك أمر يكثر على الله، إنه الكريم الذي أن أعطى جاد، وعاش أيوب وزوجته رحمة بعدها في نعيم يشكران الله على نعمه، الصبر هو مفتاح الفرج وكل بلاء لا بد أن يعقبه فرج، اصبروا، اصبروا، وادعوه يستجب لكم.

١٤ - سيدنا موسى وصافورية

كل امرأة في حياة زوجها أمر من اثنين: نقمة أو نعمة، والعكس بالتأكيد صحيح، والنساء مهما تم اضطهادهن من التاريخ وممن يكتبونه لا بد وأن تفلت معلومة أو حكاية نعرف بها أمرًا ما أو صفة أو موقفًا، وتحت النعمة صفات عديدة تتوفر في الزوجة فتكون في النهاية لزوجها سندًا ورحمة.
وللنقمة أشكال وأنواع تجعل من حياة الزوج اختبارًا وابتلاءات مثلما كان الوضع مع سيدنا نوح، وزوجة سيدنا موسى الأولى نستطيع أن نعتبرها نعمة أخذت شكل حبل الإنقاذ لزوجها.
اسمها صافورية أو صفوريا، ويسميها الأوروبيون صفورا وتعني «العصفورة»، هي ابنة النبي شعيب حسبما يقول أنس بن مالك، وأنه عاش كثيرًا، وقيل إنه ابن أخيه، وقيل ابن عمه، وقيل إنه رجل صالح ممن آمنوا بالنبي شعيب بينما يقول آخرون - ومن بينهم ابن كثير - إن والدها كان شيخًا من شيوخ القبائل، وسيدنا شعيب هو النبي الذي بعث لأصحاب الأيكة وهم قوم مدين الذين كانوا يعبدون شجرة ملفوفة.
وحكاية لقاء موسى عليه السلام بصافورية ذكرها القرآن الكريم في آيات عدة، سيدنا موسى ولد بعد نحو ٥٠٠ سنة من وفاة سيدنا يوسف، أي بعد نحو ٨٠٠ سنة من ميلاد إبراهيم عليه السلام.
ولموسى شقيق هو هارون عليه السلام، نبي مثله، ذكره الله في القرآن الكريم، ومن المرجح أنه يكبر سيدنا موسى بثلاث سنوات ولهما شقيقة اسمها مريم كانت في سن الإدراك عندما ولد موسى عليه السلام.
يقال إن موسى ولد وعاش في مدينة فاقوس محافظة الشرقية، التي كانت تسمى أرض جاسان في العصر الفرعوني حسب العهد القديم والقرآن الكريم، ومعنى اسم موسى أي الذي تم انتشاله من الماء».
خرج موسى من مصر بعد أن شهد مشاجرة مصري وإسرائيلى واستغاث الأخير به فوكز المصري وكزة أدت إلى وفاته، كان موسى قويًا مفتول العضلات، لم يفعل أكثر من محاولة إيقاف المصري فوقع صريعًا، أي أنه لم يقصد قتله، شعر موسى بأنه ارتكب ذنبا كبيرًا فاستغفر ربه مرددًا أنه قد ظلم نفسه بما فعله.
وفي اليوم التالي وبينما هو سائر في البلدة وجد نفس الرجل الإسرائيلى يستنجد به وكان مرة أخرى يتشاجر مع رجل مصري، اقترب منه موسى غاضبًا فخشي الإسرائيلي على نفسه وفضح موسى قائلا له:
- «اتريد أن تقتلني كما قتلت المصري بالأمس؟».
تراجع موسى عن التدخل في المشاجرة ولكن بعد فوات الأوان، ما قاله الإسرائيلي اعتبر إدانة مباشرة لموسى من شأنها أن تؤدي إلى سجنه.
خاف موسى من فرعون واحتار فيما يجب أن يفعله، فأتته النجدة على يد رجل من الصالحين أبلغه أن القوم في القصر يودون الاقتصاص منه ونصحه بالفرار، وفر موسى لا يعرف وجهته، إلى أن وصل إلى مدين في بلاد الشام، فوجد فتاتين تنتظران كي تسقيا أغنامهما، ساعدهما بعد أن قالتا له أن والدهما شيخ كبير، وذهبتا إلى والدهما لتحكيا له ما كان من مساعدة الرجل الغريب لهما.

وهنا نصحت صافورية والدها باستئجاره لأنه «قوى أمين» حسبما جاء وصفه في القرآن الكريم، «قوي» لأن بنيانه كان قويًا كما ذكرت، أما «أمين» فلأنه عندما أتت إليه صافورية تدعوه للقاء والدها طلب منها أن تسير وراءه عفة منه وكي لا ينظر إليها وهى تسير أمامه.
وهنا عرض عليه شعيب - عليه السلام - أو الشيخ الزواج من إحدى ابنتيه مقابل مهر وهو أن يخدمه ثماني سنوات - وإن أراد - يمدها لعشر، وقد كان.
تزوج موسى من صافورية وولدت له ولدين أولهما وُلد في مدين اسمه «جرشوم» ومعناه غريب المولد، وثانيهما «إليازر» يقال إنه ولد في مصر والله وأعلم.
وصافورية لها حكاية يحكيها اليهود تقول: إنه في حوالي ١٤٥٠ قبل الميلاد عثر على طفلة صغيرة سوداء على ضفاف البحر الأحمر، أطلق عليها اسم صفورا أو العصفورة، لون جلدها كان من المفترض أن يحكم عليها بمستقبل مظلم فهي بلونها هذا أشبه بالعبيد والخدم، لولا شعيب عليه السلام الذي تبناها فقرر أن يهتم بنفسه بتعليمها فأصبح يطلق عليها صفورًا الحكيمة.
والتوراة تحكي كيف أن هارون لم يكن يحبها كثيرًا بل هناك حكايات عن بعض محاولات للفرقة بين الزوجين عندما عاد إلى مصر ولقبها في أماكن بـ«الكوشية» أو «الإثيوبية» وإن كان البعض يقول إنها كانت إريترية، وكوشية نسبة لقبيلة كوش بن حام بن نوح عليه السلام.
وصفورا اختارها الله سبحانه وتعالى لسبب كي تكون زوجة لسيدنا موسى الذي أتى على قوم من أشد وأصعب الأقوام في التعامل مع الأنبياء، واختيارها له وهو الفقير الذي لا يملك حتى قوت يومه خير دليل على أنها تهتم بالقيم المعنوية والفضائل البشرية أكثر من اهتمامها بما يملكه الإنسان، اختارت القوي الأمين حتى ولو كان فارًا من بلاده دون أهل أو عزوة..
وهناك حادث يذكره الإنجيل عن صفورا هو في غاية الصعوبة يقول ما معناه: إن هناك من كان ينوي قتل موسى، وأن صفورة قامت ساعتها بختان ابنها «جرشوم» وأن هذا العمل هو الذي أنقذ موسى، يعتبر المسيحيون أن صفورا فهمت الرسالة من الخطر الذي يهدد زوجها وأن السبب هو أنه لم يقم بتختين ابنهما، ذكرت هذا الحادث لأنه يقدم صفورا كمنقذة عند اليهود.
علماء الإسلام يشيدون بصفورا كامرأة مؤمنة صابرة محبة لزوجها وتحدثوا عن جمالها وشخصيتها الرائعة، وتحدثت الكتب التاريخية عنها واصفة إياها بالمرأة الكريمة التي تكرم ضيوفها والغرباء.
ووصفت بالمرأة الحكيمة التي تعطي المشورة الصحيحة وكلمات الحكمة، هي بالنسبة للكثيرين زوجة نبي وابنة نبي.
صافورية كانت «باب الفرج» الذي فتحه الله له عندما كان هاربًا لا يعرف وجهته بعد أن وكز الرجل القبطي، أي المصري، في هذا الجزء من الحكاية أمر قدري، صحيح أن كل أقدارنا مكتوبة مسبقا في اللوح المحفوظ وكل شيء يحدث في حياتنا يحدث لسبب، والله وضع سيفورا أو صافورية في هذا الوقت في هذا المكان في طريق سيدنا موسى كي يراها ويختاره والدها زوجًا لتسنده وتكون ملجأه في مدين وتعيش معه سنوات يستعد فيها لأداء رسالته قبل عودته لمصر.

١٥ - البشيب زوجة النبي هارون

النبي هارون هو شقيق النبي موسى عليهما السلام، لا يعرف كثيرًا عن طفولته، فأول ذكر جاء عنه كان عندما طلب سيدنا موسى من الله أن يصحبه أخوه للقاء فرعون كي يشد من أزره، وذكر هارون في القرآن الكريم ما يقرب من عشرين مرة، أحيانا كوزير لموسى وأحيانا كمتحدث عنه لما عرف عن موسى من أنه كان يتحدث باللعثمة، افترق موسى عن أخيه هارون عشر سنوات تلك التي قضاها في مدين وتزوج فيها ثم عاد والتقى أخاه بعد غياب.

قليلة جدًا هي المعلومات عن حياة هارون الخاصة ولكن يعرف عنه أنه تزوج من البشيب كما تنطق بالعربية، ومعنى اسمها هو «عهد الله» أو «قسم الله».

يقال إنها من نسل زوجة سيدنا زكريا وأنها كانت من عائلة من رجال الدين اليهود، وبالتالي كانت إحدى قريبات السيدة مريم العذراء رضي الله عنها.

أنجبت له أربعة أولاد أحدهم هو أليعازر الذي سلمه النبي هارون رداء الكهنوت قبل أن ينتقل إلى بارئه، إذ خلع موسى عن هارون ثيابه وألبس إلعازر ابنه إياها، كان هارون لين القلب هادئا والآية الخاصة بالسامري وكيف أن سيدنا موسى قد شد لحيته حين غضب تدل على ذلك.

موسى كان قائدًا شديدًا قويًا، لذا وجب أن يكون وزيره لينا رؤوفا، توفي هارون على قمة جبل هور، عن عمر يبلغ ١٢٣ قبل التيه بثلاث سنوات وقام سيدنا موسي بدفنه، ويقال إنه دفن على قمة جبل بالقرب من مدينة البتراء في الأردن، يسمى بجبل هارون نسبة للنبي هارون.

المعلومات المتوفرة عن زوجة هارون شبه معدومة، ولكن كان يجب أن أذكرها وأذكر اسمها لأنها زوجة نبي، لم أستطع أن أحصل على أي من الحكايات الخاصة بها لإلقاء ضوء أكبر عليها.

١٦ - ميكال زوجة داوود عليه السلام

يعتبر النبي داوود أول نبي ذكر في الكتب المقدسة مرتبطًا بالتعددية في الزواج.
كان ثاني ملك على مملكة إسرائيل، وكان محاربًا جسورًا وقاضيًا عادلا وشاعرًا قام بكتابة المزامير التي هي عبارة عن مجموعة من التسابيح والأبيات لحمد الله وشكره، وكان عازفًا ماهرًا للموسيقى، ويقال إن صوته كان جميلا لدرجة أن العصافير كانت تتوقف عن الطيران لترد عليه، وأن الطيور عند سماع صوته كانت تسبح حمدًا وشكرا لله، السيدة مريم العذراء من نسله وبالتالي النبي عيسى عليهما السلام.
قال محمد بن إسحاق وهو من أهل العلم، إن دَاوُدَ كان قصيرًا، أزرق العينين، قليل الشعر، طاهر القلب ونقيه.
حكم داوُد وهو من سلالة الأنبياء إسحاق ويعقوب وإبراهيم عندما أصبح في الأربعين من عمره لمدة ٧ سنين في حبرون، و٣٣ سنة في أورشليم، والده هو «ياس» وأمه هي «نيتزيفت» وأنا أحب دومًا ذكر أسماء الأمهات، خاصة أن لا أحد يعلم عن معظمهن شيئا، تزوج كثيرًا ويقال إن عدد من تزوجهن النبي دَاوُدَ عليه السلام كانوا ثمانية لا نملك عن معظمهن معلومات وله أولاد كثر.
قصة دَاوُدَ ذكرت في القرآن الكريم، وفِي كل الكتب السماوية، لعل أشهر ما فيها حرب طالوت وجالوت التي كانت نتيجتها زواج دَاوُدَ بميكال. والحكاية باختصار أن طالوت وكان ملكًا لبني إسرائيل قاد قومه إلى الحرب مع جيش جالوت وهم من العماليق لاسترجاع الصندوق الذي يحتوي على وصايا سيدنا موسى عليه السلام الذي أخذوه.
وكان من المشاركين في الحرب سيدنا داود الذي كان شابًا صغيرًا راعيًا للغنم، لا خبرة له، أرسله أبوه ليأتيه بأخبار إخوته الثلاثة المشاركين في الحرب مع طالوت، كانت قد مرت سنوات على وفاة سيدنا موسى، وضاعت التوراة، واستولى أعداء اليهود على تابوت العهد، إلى أن حدثت المعجزة، وعادت التوراة يومًا وبدأ صراع كبير بين جيش طالوت وجيش جَالُوت الجبار المبارز الذي لا يهزمه أحد، وكيف لجيش قليل العدد أن يهزم جيشا عدده كبير جدًا. ولكن كان الله سبحانه يعد داوود ليكون نبيًا وملكًا.
ووصل جَالُوت المحارب القوي بأسلحته ودروسه وطلب أن يتقدم إليه من يبارزه، وتقدم راعي غنم فقير شاب صغير اسمه دَاوُدَ لمبارزته فرفض الملك جَالُوت. لا يبارز ملكًا إلا محارب جسور لا راعي غنم فقير لا خبرة له في الحروب أو القتال.
وفي اليوم الثاني كرر داوود طلبه من الملك طالوت في أن يكون هو من يبارز الملك الجبار جالوت، وافق طالوت ووعده إن هو نجح في قتله فإنه سوف يقوم بتعيينه قائدًا للجيش وسوف يزوجه من ابنته.
وبدات المبارزة رغم سخرية جَالُوت من خصمه راعي الغنم، إلا أن الراعي كان ذكيًا والأهم أن الله كان معه، وضع دَاوُدَ حجرًا في مقلاع، ورماه ليصيب جبهة جَالُوت ويقتله في الحال. مات جَالُوت، وبدأت الحرب بقيادة راعي الغنم، ولكن الرعب كان قد انتشر بين أفراد العدو بعد قتل قائدهم فانهزموا، وصار دَاوُدَ أشهر رجل بين قومه. وتزوج من ابنة الملك واسمها ميكال.

ميكال ومعنى اسمها سؤال هو: «من مثل الله؟ وميكال في القرآن الكريم هو اسم الملاك ميكائيل، هي الزوجة الأولى للنبي داوود، ولزواجهما حكاية، فهو ليس بالعريس الذي يتقدم لخطبة شابة ثم يقبل أهلها به، الحكاية أكثر تعقيدًا، هي ابنة الملك شاؤول أو طالوت، وهو ملك فلسطين الأول. بعد أن أخذ جَالُوت الصندوق المقدس أو تابوت العهد أعلنت الحرب، فذهب داود إلى طالوت يستأذنه بمبارزة جالوت أمير العماليق وكان من أشد الناس وأقواهم، ووعدوه في حال النصر بالفوز بميكال ابنة طالوت، وبالتالي بالحكم من بعده، وحكاية اختيار طالوت أو شاؤول كما ينطق بالعبرية ملكًا جاءت في القرآن الكريم، وارتبطت بتابوت سيدنا موسى المقدس الذي كان يضم في طياته كما يعتقد السكون والطمأنينة، وفيه أيضًا بقية من آثار آل موسى وآل هارون، مثل عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت عليها التوراة، وقد قال ابن عباس حول هذا الموضوع: «جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [البقرة: ٢٤٨] أي أن في نزول التابوت علامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكًا عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر».

وكانت المبارزة بين داوود وجالوت وقتله دَاوُدَ الذي كان لا يزال شابًا يافعًا أملا بالفوز بابنة طالوت ميكال، منح الله كثيرة لكل عباده، فكيف إن كانت منحه لأنبيائه؟ سخر الله لسيدنا داوود الجبال والطيور يسبحون لله كلما مر، وعلمه الله صناعة الدروع لمقاتلة الأعداء، وكان يمتلك القدرة على أن يلين الحديد في يديه دون مجهود..عندما رأى طالوت مدى قوة دَاوُدَ وشعبيته بين الناس وحبهم له عرض عليه أن يزوجه من ابنته الكبرى «ميرب» شرط أن يبقي قربه ويحارب معه، إلا أن دَاوُدَ رفض بكل تواضع وقال للملك من أكون كي أصاهر ملكًا مثلك، واكتشف بعدها طالوت أن ابنته الصغرى ميكال تحب دَاوُدَ وأنه هو أيضًا يحبها فقام بتزويج ميرب من رجل آخر.

بعد انتصار دَاوُدَ اعتكف فترة من الزمن، كان صوته جميلا مميزًا، فكان يقضي وقته في الجبال مسبحًا فكانت الجبال والطيور تسبح معه، وأصبح دَاوُدُ نبيًا وأعطاه الله الزبور وهو كتاب مقدس مثل التوراة، بدأ يقرأه وأصبح يصوم يومًا ويفطر يومًا، وهو ما اصطلح على تسميته بصيام الدهر. كان دَاوُدَ يفهم لغة الطيور والحيوانات فكان يحرص على إطعامها ومداواتها إن مرضت، وكان دَاوُدَ في كل مرة ينعم الله عليه بنعمة يزيد شكره لربه، كان دَاوُدَ عبدًا شكورا. ويقال إن دَاوُدَ كان أول من اكتشف أن الدروع يمكن أن تنصهر بالنار، ويمكن أن يتم تشكيلها وبدأ يصنع دروعًا مختلفة جعلت جنوده ينتصرون في كل المعارك.

وكان طالوت يغار بشدة من شعبية دَاوُدَ بين شعبه، فاستغل حب ابنته ميكال له وحبه لها وأقنعه أنه قبل بزواجهما كي يطمئن له، ثم أعد له شركا ليقتله، وعلمت ميكال بالمكيدة المدبرة فقامت بتهريب دَاوُدَ ليلا ثم وضعت في سريره ملابس ولبدة ماعز ولما اقتحم رجال طالوت المنزل اكتشفوا هروبه.

وافترق دَاوُدَ وميكال لسنوات، وتزوجت ميكال بآخر وتزوج دَاوُدَ بنساء عدة في حبرون، وقتل طالوت في إحدى المعارك ولم يكن دَاوُدَ فيها.، ثم أصبح دَاوُدُ ملكا.

حكم سيدنا دَاوُدُ عليه السلام حبرون مدة سبع سنوات ونصف بعد أن خرج من بلاده هربًا من مكيدة قتل دبرها له الملك طالوت، دبر له المؤامرة رغم أنه وافق على خطبته من ابنته ميكال كي يوقعه في الشرك بعد أن لاحظ شعبيته الطاغية وسط الناس أثر قتله لجالوت ملك العماليق واستعادة صندوق السكينة الخاص بسيدنا موسى.

بعد مقتل طالوت وابنه في الحرب أرسل أبنير قائد جيش إسرائيل إلى داوود طالبًا منه العودة إلى أورشليم القدس ليصبح ملكًا على البلاد كلها، فكان شرط دَاوُدَ للعودة أن يأتي إليه أبنير بصحبة ميكال..

هذا الطلب يدل على أنه رغم مرور السنوات لم ينسَ دَاوُد حبه الأول، ورغم زواجه من نساء أخريات إلا أن دَاوُدَ كان لا يزال على حب ميكال، سال عنها وعلم أنها تزوجت من رجل آخر فأرسل رسالة إلى أيشبوشث بن طالوت يطلب منه أن يعيد إليه امرأته ميكال التي خطبها ودفع لها مهرًا غاليًا، فأرسل أيشبوشث رجاله وأخذها من عند رجلها وأعادها إلى دَاوُدَ، ويقال إن زوجها كان يحبها حبًا جمًا وأنه بكى كثيرًا على فراقها.

وكانت النتيجة أن ميكال لَم تنجب لداوُد أبدًا وجاء في الكتب المقدسة أنه «لم يكن لميكال ولد إلى يوم موتها»، والسبب اختلف عليه الباحثون، فمنهم من قال إن دَاوُدَ عاقبها فهجرها وعاملها معاملة الجواري، ومنهم من قال إن الله سبحانه قد غضب منها فلم يرزقها بطفل.

إذا ما قمنا بتحليل شخصية ميكال مما قرأناه نستطيع أن نقول إنها كانت امرأة قوية لا تخشى أحدًا، تحدت والدها من أجل الرجل الذي أحبته وقامت بمساعدته على الفرار، ثم تركت الرجل الذي تزوجته عندما أتتها الفرصة للعودة لمن تحب، أخطأت طبعًا عندما انتقدت زوجها ولم تتفهم فرحته، إلا أنها دفعت ثمنا غاليًا لخطئها هذا، وجل من لا يخطئ أبدًا.

١٧ - زوجات أخريات لسيدنا دَاوُدَ

معكة وإبيجيل وبتسابيه

تزوج سيدنا دَاوُد مرات عديدة ومن الصعب جدًا العثور على تفاصيل كثيرة حول زوجاته إلا السيدة ميكال التي تحدثت عنها سابقا، لذا اخترت اليوم ثلاثة من زوجاته وجدت عنهن بعض المعلومات (معكة وإبيجيل، وبتسابيه).

معكة ابنة تلماي ملك جشور وهي إحدى زوجات النبي دَاوُدَ عليه السلام، واسمها عبري معناه «ظلم»، والدها كان حاكمًا لمقاطعة جشور وهي بقعة صغيرة واقعة بين حرمون وباشان تقريبًا في شرق الأردن. وأنا أذكر أسماء الأماكن كما جاءت في الإنجيل، تقع بالقرب من جسر على نهر الأردن بين طبرية والحولة يعرف بجسر بنات يعقوب. تزوج سيدنا داود معكة فولدت له ابنًا هو إيشالوم، وكان لها ابنة من زيجة سابقة اسمها ثامار لها حكاية لا داعي لذكرها هنا.

المرأة الثانية التي سأتحدث عنها هي أبيجيل، ومعنى اسمها «فرحة أبيها»، زوجة أخرى للنبي داوود، أنجبت له ولدًا، كانت متزوجة قبله من تاجر غني جدًا اسمه نابال الكرملي، تاجر أغنام شديد الثراء، كانت أبيجيل ذكية الفهم جميلة المنظر.

كان النبي دَاوُد يقوم بحماية أرض نابال وما يمتلكه، وعندما طالبه بحقوقه في إطعام رجاله رفض نابال بل وسخر من سيدنا دَاوُد سخرية كبيرة، ولأن دَاوُد كان معروفًا بقوته فقد خافت أبيجال من انتقامه، وحرصًا على أملاكها ذهبت إليه بالطعام والخيرات دون علم زوجها واعتذرت منه بشدة عن تصرف نيبال وتنبأت لسيدنا دَاوُدَ بذرية كبيرة ممتدة، لذا تعتبرها بعض الكتب المقدسة صاحبة نبوءات، وعادت إلى زوجها وقصت عليه ما فعلته لإنقاذه، بعدها بعشرة أيّام مرض نيبال فجأة ومات، وتقول الكتب المقدسة إن هذا كان عقابًا من الرب نزل على نيبال لأنه سخر من سيدنا دَاوُدَ، عندما علم سيدنا دَاوُد بالخبر عاد إلى البلدة التي كان قد غادرها وتزوج أبيجيل.

ولما احتل العمالقة مدينة صقلغ عندما كان سيدنا دَاوُد خارج البلاد - وصقلغ مدينة فلسطينية - أسروا أبيجيل. ولكن النبي دَاوُدَ عاد وأنقذها بعد أن هزم العمالقة، وولدت له ابنًا يدعى «كيلاب» وقيل إن اسمه دانيئيل.

تصف الكتب المقدسة أبيجيل بأنها سيدة شديدة الجمال والذكاء، أما التلمود فيصفها بأنها واحدة من أربع أجمل نساء عرفتهم البشرية، ويقول عنها الكتاب المقدس أنها كانت امرأة شديدة الإيمان بالله شديدة التقوى.

المرأة الثالثة هي بتسابيه والدة النبي سليمان عليه السلام، ولداود وبيتسابيه حكاية لا داعي لذكرها هنا أيضًا لأنها غالبًا من الإسرائيليات غير الصحيحة خاصة أن اليهود لا يعتبرون سيدنا دَاوُدَ نبيًا بل ملكا عظيمًا، وأنا أذكر الجيد مما جاء في الكتب والإسرائيليات، أما الأمور المسيئة للأنبياء فلا أحمل وزر نقلها.

كانت بتسابيه شديدة الجمال وزوجة قائد حربي، بعد مقتل القائد تزوجها دَاوُد، أنجبت له طفلا مرض مرضًا شديدًا، وصام دَاوُد أيامًا ودعا كثيرًا إلا أن الله كانت له حكمة واسترد وديعته، ثم رزقه الله بسيدنا سليمان، الذي أصبح ملكًا من بعده رغم أنه لم يكن أكبر أولاده.

حكايات نساء سيدنا دَاوُدَ مع سيدنا سليمان نذكرهن لدورهن في حياته، ولأن الهدف من الكتاب هو معرفة الناس بزوجات الرسل مهما كانت المعلومات المتوفرة عنهن قليلة، كان سيدنا دَاوُد نبيًا عظيمًا وقائدا شجاعًا وقاضيًا عادلا، كان يصوم الدهر وانتصر في كل الحروب وأنجب نبيًا عظيمًا آخر هو سيدنا سليمان عليهما وعلى كل الأنبياء السلام.

١٨ - زوجات سيدنا سليمان

هو أحد أنبياء الله، وأحد ملوك إسرائيل، ينتهي نسبه إلى يهوذا شقيق النبي يوسف من أبيه يعقوب، ويعقوب هو ابن إسحاق عليهم السلام، ومن ذرية سليمان جاء سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام، ولد في أورشليم القدس عام تسعمائةٍ وخمسٍ وثمانين قبل الميلاد.

أوصى النبي داود بتسليم حكم مملكة إسرائيل لولده سليمان، على الرغم من أنه لم يكن أكبر أبنائه، وذلك بأمرٍ من الله، واستلم سليمان المُلك بعد وفاة داود، كان يوم وفاة دَاوُدَ شديد الحرارة، فطلب سليمان من الطيور أن تفرد ظلالها على دَاوُدَ، وسكنت الرياح، وكان هذا أول ما فعله سليمان بعد استلامه الحكم.

حكم سليمان عليه السلام أربعين عامًا، حكم يهوذا وإسرائيل لثلاثٍ وثلاثين عامًا، وحكم مدينة الخليل في فلسطين سبعة أعوام، وكانت وفاته طبيعيّة في أورشليم القدس عام تسعمائةٍ واثنين وثلاثين قبل الميلاد، واستلم العرش بعده ابنه رحيعام.

ورث سيدنا سليمان النبوة عن أبيه دَاوُدَ. ورث النبوة وملكًا عظيمًا، كان جيشه مكونا من البشر والجن، وكان أيضًا يمتلك القدرة على فهم لغات الحيوانات والطيور، سخر الله لسليمان الرياح، والقدرة على التحكم في الشياطين، وبسبب كل هذه النعم كان سيدنا سليمان «أوابًا» أي دائم العودة إلى الله، كثير الاستغفار والتسبيح والحمد والشكر على ما أعطاه الله، وكما ألان الله الجديد لأبيه دَاوُدَ فقد علمه كيف يستفيد من النحاس، فاستفاد منه في الحرب والسلم.

لم يعط الله مُلكًا لأحد كما أعطى للنبي سليمان عليه السلام، لم تعط قدرات خارقة لأحد كما أعطى للنبي سليمان.

كان سليمان يمتلك خاتمًا يسخر له الكثير من الأمور التي كان يريدها، وحمل الخاتم الكثير من الأسرار، حيث إنه اشتمل على الاسم الأعظم لله عز وجل، الاسم الذي كان مكتوبًا على قلب سيدنا آدم عند خلقه.

كان سيدنا سليمان يفهم لغة الحيوانات ويحرك الجان والرياح وأمورًا كثيرة أخرى، وهو أيضًا الملك الوحيد الذي تزوج نساء عدة لا يعرف عددهن بشكل دقيق.

فقد ورد في الأساطير أن نبيّ الله سليمان عليه السّلام قد تزوّج ما يقرب من ألف زوجة، ونحن نذكر ما روي للذكر فقط بدون تصديق كامل لها أو تكذيب، وقد جاء في حديث لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:

«قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين، كلهن يأتين بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعين».

الراوي: أبو هريرة المحدث: البخاري. و«بشق رجل» تعني طفلا مشوهًا مقعدًا.

وهناك رواية أخرى للعالم الشهير «فخر الدين الرازي» مفادها أن سيدنا سليمان قد مرض مرضًا شديدًا حار به الأطباء بشدة. وبدأ الطيور يحضرون له أعشابًا من العالم أجمع، ورغم المرض لم

يتوقف عن التسبيح والاستغفار وطلب الشفاء، وشفي سليمان ليفهم أن الشفاء بيد الله وحده مهما بلغ علم البشر وقدراتهم.
تزوج سيدنا سليمان عددًا كبيرا جدًا من النساء، أو بمعنى أدق كانت لديه زوجات وسواري وجواري، قيل سبعين وفي رواية للبخاري أن العدد وصل إلى تسع وتسعين امرأة، وقال البعض إنهن كن أكثر من مئة، وفي بعض الأقاويل قيل ألف.
فقد كان سليمان ملكًا غنيًا، يمتلك القصور وكان عرشه مصنوعًا من الذهب والجواهر.
ليس المهم العدد، المهم أنه تزوج عددًا كبيرًا من النساء.
تذكر الكتب القديمة أن زوجة سيدنا سليمان التي أنجبت له ابنه الذي حكم من بعده ريعام كان اسمها «نعمة».
رغم الاختلاف في عدد زوجات سيدنا سليمان إذ تراوح العدد ما بين ستين ومئة ووصل البعض للقول إنهن كن ألفًا ما بين زوجات وما ملكت أيمانه، إلا أن التاريخ لم يذكر تفاصيل إلا عن اثنتين: الأولى ابنة الفرعون والثانية هي نعمة، ربما ذكرهما المؤرخون لأن الاثنتين من عائلات ملكية، وكان التاريخ هو أيضًا طبقيًا ينحاز للأقوياء وينسى الفقراء.
ونعمة كانت زوجة لملك توفي عنها وامتلكت الكثير من صلاحياته إلا فيما يخص الحروب وسياسة الدولة، يعني ملكة قوية لا ملكة تابعة، وكانت من منطقة عمون التي تقع شرقي نهر الأردن.
كانت من العمونيين وهي شعوب استوطنت شمال الأردن واتخذوا عمون أو عمان الحالية عاصمة لهم، وكان هذا في عام ١٢٥٠ق.م.
أنجبت لسيدنا سليمان ولي عهده ريهوبوام أو ينطق ريعام ابن سليمان ليكون خامس ملوك إسرائيل وآخرهم وأول ملوك دولة يهوذا، هي الوحيدة من بين زوجات سيدنا سليمان التي أنجبت له كما جاء ذكره في العهد القديم.
زواج سيدنا سليمان من نعمة كان يهدف إلى توثيق العلاقات بين عمون ومملكة القدس، قام بتدبير هذا الزواج والده الملك دَاوُد عليه السلام لإيمانه بأن الزيجات من شأنها مد جسور علاقات قوية بين البلاد، عُرف عن نعمة بعد زواجها من سليمان عدم انخراطها في حياة حريم الملك وعددهن كما ذكرنا كان كثيرًا، أقامت مع والدة الملك سليمان «باتشيبا» التي عاشت حتى سن متاخرة، وفِي ذلك العهد كانت والدة الملك هي صاحبة الكلمة والسلطة لا زوجاته.
وعلاقة نعمة بحماتها قيل عنها أمران متضادان، فالبعض قال إنها احتضنتها ومن هنا جاءت قوتها، والبعض الآخر قال العكس، وإنها مسحت كل ما كتب عنها بعد وفاتها، ما وصلنا أن نعمة كانت ذات شخصية قوية، على قدر كبير من الذكاء وإضافة إلى ما سبق كانت أيضًا جميلة.
أنجب سليمان من نعمة «ريهوبوام»، حكم وهو في الحادية والأربعين من عمره سبعة عشر عامًا على مملكة القدس أرض الله المختارة كما يؤمن اليهود، وبما أن سليمان قد حكم أربعين عامًا فإن هذا يعتبره المورخون دليلا على أن نعمة كانت زوجته الأولى.
يقال إن سليمان كان يحب نعمة حبًا شديدًا وكتب فيها قصائد عدة، فقد كان شاعرًا مفوها ويقال إنه في آخر أيامه نصح شابًا في مقتبل العمر بالبقاء دومًا مع المرأة التي يحبها، ويقال إنه كان يقصد بهذا الكلام نعمة، لا يعرف تاريخ وفاة نعمة وإن كانت قد شهدت ملك ابنها أم لا، ولو كان قد حدث هذا لكانت من المؤكد ملكة قوية ذات نفوذ.

تزوج سيدنا سليمان أيضًا من أميرة مصرية، تزوجها لإتمام اتفاق سياسي. فقد كان الملك سليمان يعيش في فترة مضطربة سياسيًا كثرت فيها الحروب.
وأفضل طريقة لإتمام السلام كانت عن طريق الزواج كي يسود الأمن بين الممالك، فعندما تحدث المصاهرة يأتي السلام.
وكان رفض الزواج يعني رفض السلام، وهذا يفسر سبب زيجات الملك سليمان من الكثير من الأميرات، إذ يعتقد أن معظمها كان لأغراض سياسية.
قام سليمان بمصاهرة فرعون مصر، وأخذ ابنته معه إلى بلاد والده الملك دَاوُد التي أورثه حكمها.
ويفسر هذا الزواج على أنه دليل على مدى قوة الملك سليمان ودولته وقتها؛ لأن الفراعنة كانوا حينها يرفضون تزويج بناتهم من خارج الأسرة الملكية، وفسرها اليهود أيضًا بأنها دليل آخر على رضا الله عن اليهود، فابن من أبناء سيدنا موسى الذي حارب فرعون وتسبب في غرقه عندما خرج بقومه هاربًا من بطشه ها هو يصاهر الفرعون نفسه، ويجب أن نشير هنا إلى أن قوة سليمان نابعة من قوة والده داوود الذي ترك له مملكة قوية.
كانت ابنة الفرعون هي الزوجة الوحيدة التي عاشت في قصر خاص بها، لا يعرف اسمها وذكرت في كل المراجع «بابنة فرعون».
وفِي «ترنيمة سليمان» وهي إحدى الصلوات الموجودة في العهد القديم يعتقد أن المرأة التي يأتي ذكرها هي ابنة فرعون وإن كان البعض الآخر، يقول إنها لملكة سبأ. لا نعرف عن حياتها شيئا أكثر مما ذكرته، ولكن يذكرها التاريخ فقط بكونها مصرية وابنة فرعون.
في كل مرة أكتب عن هذه النساء ينتابني نوعان من المشاعر، أولهما الحزن لعدم اهتمام التاريخ بهن، ثانيًا الأمل في أن ما أكتبه لعله وعساه يلقي بعض الضوء عليهن.
أما أشهر امرأة ارتبطت بسيدنا سليمان فهي الملكة بلقيس ملكة سبأ، قال البعض إنها تزوجت من سيدنا سليمان وأنجبت له منليك الأول في ٩٥٠ قبل الميلاد. اسمه يعني ابن الحكماء، تولى العرش عند وفاة الملكة بلقيس وتوج إمبراطورًا وملك الملوك.
يقال إن له الفضل له في جلب تابوت العهد إلى إثيوبيا بعد زيارة للقاء والده النبي سليمان في مدينة القدس عند بلوغه سن الرشد، ومنه انحدرت السلالة السليمانية نسبة إلى والده سليمان، واستمرت في حكم إثيوبيا فترة طويلة.

١٩ - إيشاع زوجة النبي زكريا عليه السلام

مضت عقود على وفاة النبي سليمان، وبدأ جيل جديد من الأنبياء من سلالة سيدنا إسحاق بن سيدنا إبراهيم لعل أشهرهم النبي زكريا وابنه يحيي.
في ذلك الوقت كان بنو إسرائيل قد عادوا إلى طباعهم من عند وتعنت وتشكيك في الأنبياء الذين يرسلهم الله إليهم، وكان زكريا يدعوهم إلى الله الواحد الأحد.
اسمه زكريا بن دان، وفي قول آخر قيل إن اسمه هو: زكريا بن أدن، نَسَبه ونسله يتّصلان بنبييّ الله داود وسليمان عليهما السّلام، وهو من بنى إسرائيل، كان يعيش في زمن سيدنا زكريا وسط بني إسرائيل رجل صالح اسمه عمران خرج من صلبه الكثير من الصالحين من بينهم سيدة نساء العالمين السيدة مريم العذراء وابنها عيسى السيد المسيح عليهما السلام، هذا الرجل كان صالحًا وتقيًا حتى أن هناك سورة في القرآن الكريم تحمل اسمه: آل عمران، كان رجلا تقيًا متزوجًا من سيدة تقية اسمها حنة لها أخت اسمها إيشاع متزوجة من النبي زكريا عليه السلام، لا نعرف الكثير عن طفولة إيشاع وشبابها، كل ما نعرفه عن زكريا أنه كان نجارًا يعيش حياة متواضعة أقرب ما تكون إلى الفقر، ورغم هذا كان دائم الحمد والشكر لله.
ذُكرت قصته في ثلاث سور: آل عمران، ومريم، والأنبياء.
كانت إيشاع من نسل النبي هارون، أخت حنة بنت فاقوذ زوجة عمران، وخالة السيدة العذراء مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام، كانت إيشاع تقية، صالحة من العابدات، وصابرة على قضاء الله فقد كانت عاقرًا لا تلد، لا نعرف شيئا عن طفولتها وظروف زواجها من النبي زكريا، فالقرآن والكتب المقدسة لم تذكر إلا حكاية زكريا مع السيدة مريم، وحكاية حمل زوجته إيشاع العابدة الصابرة الشهيرة باسم إليصابات، كانت هي وأختها حنة محرومتين من الإنجاب إلى أن استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء حنة بأن يرزقها بطفل تهبه لبيت المقدس فوهبها مريم عليها السلام.
عندما رأت إيشاع حمل أختها أيقنت أكثر فأكثر أنه ليس هناك مستحيل عند الله، وتوفي عمران الرجل الصالح فكفل النبي زكريا السيدة مريم، كان زكريا يفعل هذا راضيًا حامدًا شاكرًا، إلا أنه عندما رأى حمل حنة ثم ولادتها للسيدة مريم اشتاقت نفسه للولد رغم كبر سنه.
فدعا ربه (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) [الأنبياء: ٨٩].
هذا الدعاء الذي أصبح الناس يرددونه عندما يريدون الزواج أو الإنجاب، سأل زكريا عليه السلام خالقه أن يرزقه طفلا يرث النبوة من بعده والحكمة والعلم، كان زكريا خائفا أن يضل القوم عن دينهم إن لم يبعث فيهم نبي.
وجبر الله تعالى زكريا واستجاب له، نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب، وبشروه بغلام اسمه يحيى وهو أول من حمل هذا الاسم في التاريخ، وبشروه أنه سيكون نبيًا من الصالحين.
كان زكريا عليه السلام مستمرًا في شكر الله والحمد له، لذا عندما بشرته الملائكة بالولد طلب من ربه أن يجعل له آية أو علامة يعرف فيها أن دعاءه قد أستجيب.
أوحى الله لزكريا أنه ستجيء عليه ثلاثة أيام لا يستطيع فيها النطق ويجد نفسه غير قادر على الكلام ويكون صحيحًا غير معتل، إذا حدث له هذا تيقن زكريا عليه السلام أن امرأته حامل، وهذا

ما حصل فعلا، خرج زكريا لقومه فوجد نفسه غير قادر على النطق فأشار لقومه أن يسُبّحوا في الفجر والعشاء.
واستجاب له الله واستجاب لدعاء زوجته إيشاع أو إليصابات التي كانت تحلم بالطفل وتدعو وهي صابرة راضية حامدة شاكرة.
يقال إن إيشاع عندما أصبحت حاملا كانت في الثامنة والثمانين من عمرها وسيدنا زكريا في الثامنة والتسعين.، وفِي حمل إيشاع أمور كثيرة نستنبطها ونستخلصها، أولها أنه لا مستحيل عند الله، أي أمر تطلبه من الله بيقين الإجابة لا بد وأن يستجيب لنا ونحن معشر البشر العاديين، فكيف بنبي من أنبيائه الصالحين؟
ثانيها أن معجزة سيدنا زكريا مرتبطة بزوجته إيشاع ابنة عمران، كان من الممكن أن يتزوج زكريا من امرأة أخرى أصغر وقادرة على الإنجاب، ووقتها كان الأمر سيمر مرورًا عاديًا، المعجزة في أن تنجب هذه السيدة التي تخطت سن الإنجاب منذ سنوات طويلة، ومعجزة لا بد أن تنجب معجزة، لذا رزقهما الله بيحيى، عليه السلام.

القسم الثاني:
زوجات سيدنا محمد ﷺ
أو أمهات المؤمنين

لا يخلو حديث من الصلاة على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي حكاياته مع زوجاته الكثير من الحب ليروى، ويقتدى به، فرسولنا كان زوجًا رحيمًا محبًا حنونا كريمًا، صفات لو توفرت في الزوج لكانت الزوجة أسعد النساء.

لماذا أكتب عن زوجات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهناك أكثر من كتاب حول أمهات المؤمنين، ولعل على رأسها كتاب بنت الشاطئ «تراجم أمهات المؤمنين»، وهذا الكتاب والحق يقال هو الأشهر على الإطلاق، وقد كان مفيدًا جدًا لي واستعنت به وبغيره من الكتب وأنا أبحث.

لماذا اكتب عنهن؟

أولا أكتب حبًا في رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأملا في أن أقدم عملًا يفيد فيقال عنه علم ينتفع به، وأطمح أن يصل إلى أكبر عدد من القراء، لهذا حرصت أن أكتب بأسلوب بسيط جدًا وألا أكتب الكثير من الآيات والأحاديث، وإن كنت قد اعتمدت عليها بالتأكيد في معرفة الأحداث والتفاصيل.

كتابي عبارة عن حكايات حقيقية بسيطة لسيدات عظيمات، حظين بشرف الزواج من رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

كل سيدة منهن رضي الله عنهن جميعًا أخذت من قلبي دقات عديدة، أحببت حكمة السيدة خديجة وحبها وثقتها اللامحدودة في زوجها، أحببت غيرة السيدة عائشة وكيف كان زوجها عليه الصلاة والسلام يدللها ويحرص على مصالحتها.

أحببت حرص السيدة حفصة على حفظ القرآن الكريم حتى أصبحت مرجعًا، أحببت تحدي أم حبيبة لأبيها وقبيلتها من أجل دينها.

أحببت صبر ماريا القبطية على ابتلائها عندما فقدت ابنها وحرص صفية بنت حُيي على صلة رحمها حتى بعد إسلامها.

أحببت أمهات المؤمنين جميعًا لا أستثني منهن أحدًا.

أحببت حبهن لرسول الله وحرصهن على الاستفادة من وجودهن معه.

كتبت هذا الكتاب وقلبي مليء بأمرين:

أولاً محبة رسولنا الكريم وآل بيته عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

وثانيًا: آمل أن يكون هذا الكتاب في ميزان حسناتي فيغفر لي الله ما تأخر من ذنوبي وما تقدم، فيستجيب لدعائي بأن يجمعني برسله وأنبيائه أنا ومن أحب في الفردوس الأعلى.

لا تستغربوا من دعائي وأملي فعندما تسأل رب العالمين اسأل ما شئت لأنك ببساطة إن لم تسال الكريم الوهاب الودود الجبار، فمن تسال؟

ولا تحلو أي بداية قراءة إلا بالصلاة على النبي، صلوا على رسول الله وسلموا تسليمًا.

١ - السيدة خديجة

أحلى ما وصفها به سيد الخلق محمد، عليه الصلاة والسلام، كان «أني رُزِقْت حبها»، هي واحدة من سيدات نساء العالمين، ودورها مع سيد الخلق كان مؤثرًا وكبيرًا، هي رمز للعطاء والحكمة ونعم الزوجة والأم. خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية، وُلدت عام ٥٥٦ م أي عام ٦٨ قبل الهجرة.

لا يُعرف الكثير عن طفولة خديجة غير أنها نشأت وسط عائلة شديدة الثراء، والدها كان صاحب مكانة كبيرة في قريش، وعُرف عن أهلها إطعام الفقير ومساعدة المحتاج.

لم تكن حياة السيدة سهلة أبدًا، قُتل أبوها وأخواها في الحرب، ولم يتبقَّ لها سوى أخيها نوفل بن خويلد، الذي كان بعيدًا، فاضطرت لتحمل مسؤولية نفسها مبكرًا، ولم ترد أي روايات عنه أو عن أي موقف اتخذه منها أو معها، لم تسر أبدًا بشكل بسيط.

فى الخامسة عشرة من عمرها تزوجت للمرة الأولى على عادة قومها وقتها في تزويج بناتهن في سن صغيرة من أبي هالة بن زرارة التميمي وأنجبت منه «هند» و«هالة»، وعاشت سنوات قليلة معه قبل أن يختطفه الموت، وبعدها بفترة تقدم لها أحد أسياد قريش، هو عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي وقبلت، تزوجته وأنجبت منه «هند بنت عتيق»، إلا أن هذه الزيجة لم تَدُمْ طويلًا.

وعاشت خديجة بلا زوج يُقال من سن الخامسة والعشرين حتى سن الأربعين، عاشت تهتم ببناتها وتجارتها التي كانت تزدهر، وكان لقبها بين قومها «الطاهرة»، وكانت واسعة الأفق والاطلاع، تحرص كثيرًا على سماع أحاديث ابن عمها، ورقة بن نوفل، عن الأنبياء والأديان.

وذات ليلة طافت خديجة بالكعبة كعادتها دومًا، وعادت إلى منزلها، دخلت فراشها وراحت في سبات عميق، ورأت رؤيا بشرتها بما هو آتٍ إليها من خير، رأت فيما يرى النائم شمسًا عظيمة تهبط من سماء مكة وتدخل دارها، ليغمر بيتها نور شديد، واستيقظت وهي تحس في قلبها بسكينة وإشراق، وما إن لاح النهار حتى ذهبت إلى ابن عمها وقصّت عليه رؤياها، فقال لها إن نور النبوة سيدخل بيتها، وبدأ يُحدِّثها عن صفات النبي المنتظر كما قرأ عنه في الصحف القديمة، وسعدت خديجة بشدة، وبدأت تعيش على أمل وفي انتظار القادم، وكان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه قرب البيت العتيق، وبينما كن جالسات إذا بيهودي يقترب منهن، ويصرخ عاليًا: لقد اقترب ظهور النبي المنتظر، كل النساء سخرت منه إلا خديجة، أيقظ كلامه في قلبها ذكرى حلم الشمس التي غمرت بيتها واستقرت فيه، فابتسمت، وكانت خديجة ذات مال وفير، عُرف عنها عملها في التجارة، وكانت أحوال بني هاشم ليست في أحسنها، بعد أن شغل الصيد «حمزة» عن التجارة، وأصبح «العباس» يخرج بنفسه في تجارته، لم تكن أحوال عم الرسول «أبي طالب» جيدة، فطلب من ابن أخيه أن يعرض على خديجة العمل لحسابها، فأجابه سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام: «فلعلها ترسل إلى في ذلك»، وهذا ما حدث فعلًا، عرفت خديجة برغبته في العمل معها، فأرسلت إليه، وقالت له إنها سمعت عن أمانته وصدقه، فهو مَن كان يُلقَّب بـ«الصادق الأمين»، وكانت تعرف عنه الكثير، فأخوها، العوام بن خويلد، كان متزوجًا من «صفية»، عمة محمد، وعرضت عليه ضِعف ما سوف تعطيه لغيره من الرجال، وخرج محمد في تجارة خديجة للشام، وجلس في الطريق تحت شجرة قرب صومعة أحد الرهبان، وكان الراهب يعرف «ميسرة»، الذي كان يعمل

لدى خديجة، ويرافق محمدًا في رحلته، فسأله عن محمد ومَن يكون، فأجابه بأنه رجل يعيش قرب الكعبة، فكان تعليق الراهب على كلامه: «ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي»، وأكملت القافلة سيرها حتى وصلت إلى الشام، وهناك طلب مشترٍ من محمد أن يُقسم باللات والعزّى على أمر في البيعة، فرفض سيدنا محمد، عندها اشترى منه الرجل، حكى «ميسرة» لخديجة ما سمعه من الراهب ورفض محمد القَسم بآلهة الجاهلية، فبدأت ترسخ داخلها فكرة أن هذا الرجل هو نبي هذه الأمة، وكيف لا يكون وهو مَن يَصْدُق الناس ويؤدى الأمانات لأصحابها؟ كيف لا يكون وأخلاقه كريمة والناس يحبونه؟! وبدأت ترجوه زوجًا لها، ولكن ما السبيل إلى ذلك؟ أرسلت خديجة إحدى صديقاتها تستطلع أمره، وتخبره بأن خديجة ترغب في الزواج منه، فوافق، فما كان منها إلا أن حددت له موعدًا، واستدعت عمها، عمرو بن أسد، ليُزوّجها، وأتاها سيدنا محمد بصحبة أعمامه، حضر زواج خديجة ومحمد أعمامه عبد المطلب وحمزة والعباس، وصديقاه أبوبكر وعمار بن ياسر، استقبل المجلس ابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن خزام، وكانت بصحبة خديجة «صفية» و«عاتكة»، ابنتا عم الرسول «عبد المطلب»، إضافة إلى سيدات أخريات من صديقاتها، تزوج محمد خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت هي في الأربعين، فقد وُلدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة، عاش محمد وخديجة في سعادة، وكانت الزوجة كل يوم تكتشف أنها أحسنت اختيار الزوج، فقد كان زوجًا مُحِبًّا رحيمًا كريمًا صبورًا، وعاش معهما «هند»، ابن خديجة، الذي تعلق بزوج أمه، وتعلم منه الكثير، ووهبت خديجة محمدًا خادمها «زيد»، فتعلق «زيد» بسيده تعلقًا شديدًا، فما كان منه إلا أن أعتقه، ونسبه إلى نفسه، حتى أصبح يسمى «زيد بن محمد»، إلى أن أمر الله بغير ذلك.

وأراد الله للزوجين أن يكونا عائلة، فرزقهما الله بعد فترة بزينب، وعندما أصبحت في عامها الثاني رزقهما الله برقية وبعدها جاءت أم كلثوم، ثلاث فتيات أسعدن قلب والدهن ومع زيد الذي قام سيدنا محمد بتحريره وهند ابن خديجة عاشوا في سعادة عارمة.

كانت خديجة لمحمد الزوجة والأم والداعم، كانت تمنح محمدًا تفهّم الزوجة ودعمها ومساندتها المادية والمعنوية وتعوضه عن حنان الأم وكرمها، فرق العمر بينهما، كان في صالحهما إضافة إلى طبيعتها الطيبة الذكية الكريمة جعلها تتفهم احتياجات رجل مثل محمد، محمد الذي عاش يتيما ولم يعرف طعم الحنان فعوضه الله بخديجة، ولم يعرف قبلها أي امرأة فهو التقي العفيف، فكانت نعم الزوجة المحبة المعطاءة، منحته السكن والراحة والأولاد.

ووهب الله بعد ذلك محمدًا وخديجة ابنتهما فاطمة التي كتب لها أن تكون سيدة نساء العالمين وأم الحسن والحسين، ومنهم تستمر سلالة رسول الله حتى يومنا هذا، ورزقت أيضًا فاطمة بزينب حبيبة أخويها، كما ولدت خديجة لمحمد ولدين هما القاسم وعبد الله، ولكن لم تُكتب لهما الحياة وإن كان الرسول قد كني بأبي القاسم، وعدم بقاء أحد من أولاده الصبيان أو الرجال على قيد الحياة لسبب وهو أن الله سبحانه أراد أن يكون محمدًا خاتم الأنبياء، حتى عندما رزقه الله من السيدة ماريا القبطية بابنه إبراهيم لم يعش طويلا بل سنتين فقط، وكان لحكمة أخرى ووفاته أدمت قلب رسول الله وأبكته وقال عبارته الشهيرة؛

«إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، قبل سيدنا محمد كان هناك توريث للنبوة، أب يسلم ابنه مهمة تكملة نشر الدعوة.

رزق الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في كِبره بابنين، هما إسماعيل وإسحاق، وقد جعلهما الله نبيّين بعد أبيهما إبراهيم، ثم اختار الله أن تكون النُّبوة لفترة من الزمن في ذرية إسحاق، وجاء من بعد إسحاق يعقوب، ثم يوسف، واستمرت النبوة في بني إسرائيل بعد ذلك، واستمر توارث النبوة في أبناء الأنبياء، فورث سُلَيْمَانُ دَاوُودَ، ورُزق زكريا بعد أن بلغ من الكِبَرِ عِتِيًّا ابنًا هو يحيى ورثه في النبوة، وقد كان سيدنا عيسى - عليه السلام - آخر الأنبياء من ذرية إسحاق عليه السلام، ثم بعد ذلك كان مجيء محمد ﷺ من فرع سيدنا إسماعيل حيث بعثه الله سبحانه وتعالى، استجابةً لدعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، لتنتهي النُّبوة في أبناء إسحاق عليه السلام برفع الله لعيسى ابن مريم إلى السماء، ولتنتقل النبوة إلى فرع إسماعيل عليه السلام في رسالة سيدنا محمد وهو من سلالة إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام.

ولأن الله أراد سبحانه وتعالى أن تكون الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، فقد كَفِل ما يضمن استمرار هذا إلى يوم القيامة، كي لا يُفتن بعض الناس ممن آمنوا بالنبي ﷺ، فيعتقدون أن النبوّة سيرثها أحد أبناء النبي كما حدث لأنبياء من قبله، لذا مات جميع أبنائه الذكور في حياته، وظهرت الحكمة من ذلك - ﷺ - عندما بدأ المسلمون نظام الخلافة بعد وفاة سيدنا محمد لعدم القدرة على توريث النبوة.

وعاد محمد إلى خديجة مرتجفا ومرددًا: زملوني زملوني، أي «دثروني دثروني»، كان يرتجف وحكى لها ما حدث، لم يفكر للحظة أنها امرأة على طريقة رجال كثر في عصر الجاهلية وفي عصورنا الحالية يعتقدون أن النساء غير قادرات على الحكم على الأمور، ولم يكتفٍ بأخبارها بل استمع إلى نصيحتها في الذهاب إلى ورقة بن نوفل ابن عمها فقد كان نصرانيا في عز الجاهلية كان يقرأ كل المخطوطات اليهودية والأناجيل، استمع ورقة إلى محمد وأكد له أن ما نزل عليه هو وحي وأنه نبي مختار مثل موسى، ونتوقف هنا أمام خديجة، أي ثقة تلك التي في رجلها جعلها لا تتردد ثانية في تصديقه؟ ما هذا القدر من الحب الذي تحمله هذه السيدة لرجلها؟ كيف استطاعت أن تسانده هكذا وأن تسنده هكذا؟ وما هذا القدر من الحكمة الذي جعلها تدله إلى الشخص المناسب في الوقت المناسب؟ لم يكن اختيار السماء لخديجة صدفة، فقد أعدها الله سبحانه وتعالى لمثل هذا اليوم، وبكل يقين قالت له: «والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف،وتعين على نوائب الحق»، أي إلهام نزل في قلب هذه المرأة جعلها تقول ما قالته؟ والأهم أي رسالة جميلة لنساء العالمين أرسلها رب العالمين عندما جعل أول من آمن بسيدنا محمد امرأة، ومن أرشده امرأة، ومن سانده امرأة؟

وبعد خديجة آمن علي بن أبي طالب وكان صبيًا لم يبلغ الحلم، يقول كتاب السيرة إن الصلاة فرضت على الرسول عليه الصلاة والسلام مع نزول أول وحي علمه سيدنا جبريل كيف يكون الوضوء ثم صلى به، وكانت خديجة أول من صلى معه عندما عاد إليها.

كان محمد يدعو الرجال وخديجة تساعده في شرح دعوته لمن تعرفهن من النسوة وتعرضت أكثر من مرة للأذى بسبب هذا الأمر، فراقها عن ابنتها رقية عندما هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان إلى الحبشة ووداعها لها أحزن قلبها، ولكن أذى قريش كان قد تمادى، أحد عشر رجلا وأربع نساء من خيرة الناس هاجروا معًا وأعلن كفار قريش الحرب على محمد وعلى من اتبعه وقرروا قتله وضيقوا عليه الخناق وأعلنوا عليه الحصار عندما دخل شعب أبي طالب ومنعوا الناس من الاتصال به أو الدخول إليه، حصار قاس جدًا استغرق سنة، نفد ما كان لدى بني هاشم وعبد

المطلب من مخزون، وبدأت مرحلة التجويع، ثلاث سنوات من الجوع والحصار صبروا فيها على المحنة حتى لان قلب بعض سادة قريش ونادوا بفك الحصار، وانتهى الحصار في السنة العاشرة للبعثة، ولكنه أثر على صحة خديجة، خرجت منه ضعيفة معتلة، ورغم هذا لم تتذمر وأكملت واجباتها وحياتها، كزوجة وكأم، بقيت على حبها وعطائها رغم اعتلال صحتها حتى لبت نداء ربها بعد أن بشرها زوجها رسول الله صَلى الله عليه وسلم بالجنة.

والبشارة جاءت على لسان سيدنا جبريل عندما كان ذات مرة في غار حراء وأتته تحمل إناء فيه طعام فطلب منه سيدنا جبريل أن يقرئها السلام منه ومن الله سبحانه وتعالى وبشرها ببيت في الجنة.

السيدة خديجة كرمها الله عندما رزقها وحدها بأولاد رغم أن الرسول تزوج كثيرات بعدها، كرمها أنه لم يتزوج عليها في حياتها، كرمها عندما شاركته أهم لحظات حياته عند نزول الوحي عليه وصدقته، وآمنت به وساندته، لذا تستحق أن تكون واحدة من سيدات العالمين وتستحق أن تكون واحدة من سيدات الجنة.

بقي الرسول يذكر خديجة بالخير حتى أن السيدة عائشة كانت تغار منها، ورغم حب سيدنا محمد لعائشة إلا أنه طلب منها أن تعده ألا تذكرها إلا بخير، وقد كان.

رزق وفير من الحب والود والإخلاص والوفاء كان من نصيب سيدنا محمد، خديجة عنصر دفع رئيسي ساعده كثيرًا في الدعوة ورسالة واضحة للعالمين أن وراء كل رجل عظيم امرأة وخديجة ليست كأي امرأة.

٢ - سودة بنت زمعة

تتشابه النساء عبر التاريخ، بعضهن كتب لهن أن يصبحن شهيرات لما أنجزنه، وبعضهن لمجرد أنهن تزوجن من رجال مشاهير مثل السيدة سودة بنت زمعة ثاني زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام بعد السيدة خديجة بنت خويلد، كانت أرملة السكران بن عمرو وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم مرض فعاد إلى مكة وتوفي هناك، بعد وفاة السيدة خديجة نصحت السيدة خولة بنت حكيم الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بالزواج وعرضت عليه السيدة عائشة والسيدة سودة بنت زمعة، ولما كانت عائشة لا تزال طفلة تزوج من السيدة سودة أولاً، وتم هذا في رمضان سنة عشرة من النبوة ودخل بها في مكة بعد أن أصدقها أربعمائة درهم.

وكانت في الخامسة والخمسين من عمرها بينما كان هو في الخمسين، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وبنى داره أرسل من يحضر له سودة وابنتيه أم كلثوم وفاطمة ومعهن السيدة عائشة، وجعل لسودة يومًا ولعائشة يومًا، وكانت سعيدة بالاهتمام بابنتي رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكانت ممتلئة الجسم ولكنها كانت خفيفة الظل والروح وطيبة إلى درجة كبيرة، وكانت تعلم بمدى حب رسول الله ﷺ لعائشة فكانت تحرص على خدمتها ورضاها، ولما شعرت بأنها كبرت في السن خافت أن يطلقها رسول الله فاستغنت عن يومها لعائشة وأحلته من واجباته نحوها، فقبل رسول الله ﷺ ونزلت بعدها الآية التالية: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير» ولها حكاية شهيرة عندما سمعت كلام السيدة عائشة في حكاية المغافير الشهيرة عندما اغتاظت لأنه أطال الجلوس عند السيدة حفصة بنت عمر وكانت قد سقته شربة عسل فنفذت ما طلبته منها وقالت لرسول الله: «ما هذا الريح؟» ونفس الكلام قالته عائشة حتى أنه رفض بعدها شربة ثانية من عند حفصة، وقرر بعدها الرسول أن يطلقها فناشدته أن يرجعها وقالت له:

«قد كبرت ولا حاجة لي في الرجال ولكني أحب أن أبعث في نسائك يوم القيامة»، فراجعها الرسول عليه الصلاة والسلام، وذات ليلة اجتمعت زوجات الرسول معه وسألنه: «يا رسول الله أي واحدة فينا أسرع لحاقا بك؟» فأجاب عليه الصلاة والسلام: «أطولكن يدًا» فأخذن يقسن بقصبة طول أذرعتهن فكانت سودة بنت زمعة الأطول ذراعًا، وحجت سودة مع الرسول حجة الوداع ورفضت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أن تحج بعدها، وفي عهد عمر بن الخطاب أرسل إليها بصرر من الدراهم فخرجت ووزعت الأموال على فقراء المدينة، وكانت سودة بنت زمعة فعلاً أول من لحق بالرسول من نسائه وماتت حسبما يقال عام ٥٤ من الهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وبعد موتها قالت عائشة: عرفنا بعد ذلك إنما كان المقصود بطول يدها: الصدقة.

٣ ـ السيدة عائشة

السيدة عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ حظيت بالكثير إذ يكفيها حب رسول الله ﷺ الكبير لها وهو من عبر عن حبه لها في حديث شهير.
إذ عندما سأله عمرو بن العاص:
من أحب الناس إليك؟
أجاب: «عائشة».
ولكن عائشة عانت كثيرًا، فقد حرمت من نعمة الأمومة لسبب لا يعلمه إلا الله، ولربما كي يبقى نسل خديجة فقط، وأيضًا لسبب لا يعلمه الا الله، وكانت ضحية ظلم بيّن أثر فيها بقية حياتها في حادث الإفك، فحياة هذه السيدة غنية جدًا ومهما قرأنا عنها لا يسعنا إلا أن نتعلم ونستفيد، وقبل أن نتحدث عن السيدة عائشة نتحدث عمن أنجبتها، والدتها.
فالكل يعرف أنها ابنة أبي بكر الذي اشتهر بالصدّيق، ولكن لا يتوقف كثيرون أمام والدتها: «أم رومان» واسمها زينب أو دعد، مختلف فيه، تعود أصولها إلى كنانة.
تزوجت قبل أبي بكر وأرضاه بصاحبه عبد الله بن الحارث بن سخيرة، وولدت منه الطفيل، ثم مات فتزوجها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه، كانت أم رومان امرأة ذكية، أسلمت وهاجرت مع من هاجر ولاقت عناءً شديدًا في سبيل دينها وزوجها، أغلب الظن أنها توفيت في حياة الرسول ﷺ بعد حادث الإفك، ويقال إن رسول الله ﷺ نزل إلى قبرها واستغفر لها، وقال عنها: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»، وحسب ما جاء في طبقات ابن سعد أنه ﷺ قال وهو في قبرها: «اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك».
والسيدة عائشة من قوم بني تيم الذين عرفوا بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأي، وكانوا مضرب المثل في البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن، أما أبو بكر الصديق والدها، فقد أجمع المؤرخون على نسبه وعلمه ودماثة خلقه وصدقه، فقد كان من أوائل الذين دخلوا الإسلام ونجح في أن يسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وهم من العشرة المبشرين بالجنة.
ويبدو أن السيدة عائشة قد ورثت الكثير عن أبيها شكلا وصفات، إذ يقال إن سيدنا أبا بكر كان وسيمًا وكان نحيلا دقيق التكوين، كانت عائشة تميل إلى النحافة، لدرجة أن الذين كانوا يحملون هودجها خاليًا كانوا يحسبونها داخله، وكانت أقرب إلى الطول؛ لأنها كانت تعيب على السيدة صفية قصرها، وكان الرسول ﷺ يلقبها بالحميراء، نسبة إلى بياضها. وعرف منها أن شعرها أصبح خفيفًا جدًا بعد وعكة صحية ألمت بها، حتى أنها كانت توصي الناس بإكرام شعورهم.
وعرف عن صوتها أنه كان جهوريًا، وتأكد ذلك للمؤرخين من رواة موقعة الجمل، إذ كان صوتها يسمع في ساحة الحرب.
من خصالها الكرم وسرعة نجدة المعوزين، صادقة لا تحب الكذب ولها في كلامها حجة، قادرة على الرد وإن كانت تفعل هذا بحدة ورثتها عن أبيها، الذي كان يحاول دومًا ترويض هذه الحدة، وكانت عندما تدخل في نقاش مع أحد يقول الرسول ﷺ: «إنها ابنة أبي بكر! إنها ابنة أبي بكر».

اختلفت الآراء حول السن التي تزوج بها الرسول الكريم محمد (ﷺ) من السيدة عائشة أو كما كان يقال قديمًا «بنى بها»، تقول بنت الشاطئ إنه خطبها وهي في السابعة، ويروي العقاد أنه تزوجها على أغلب الظن عندما كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة أو أكثر بقليل.
على كل ما يهمنا هو الزواج، فارق السن كان متعارفا عليه في ذلك الوقت، فسيدنا عمر تزوج من ابنة سيدنا علي بن أبي طالب وهو أكبر من أبيها، وقد لا يعرف البعض أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم بن عدي صاحب أبي بكر ، إلى أن عرضت السيدة خولة بنت حكيم على الرسول (ﷺ) الزواج من عائشة، رحب الرسول وأرسلها إلى أبي بكر، ولأن أبا بكر رجل يحترم كلمته كان لا بد أن يتحلل من وعده أولا وجاءته الفرصة عندما تخوف والدا العريس من أن يدخل ابنهما الإسلام وكانوا لا يزالون على جاهليتهم، فتحلل أبو بكر بهذا التخوف من جانبهما من وعده،
بدأت الحكاية بحلم وأحلام الأنبياء رؤى. قصة حب سيدنا محمد للسيدة عائشة اختيار رباني والله يضع الحب في القلوب متى يشاء وينزعه متى يشاء فكل شيء بأمره، فعن عائشةَ أنها قالتْ: قال رسولُ الله - ﷺ - :
«أُريتكِ في المنام ثلاثَ ليالٍ، جاءَني بكِ المَلَك في سَرَقةٍ (قطعة) مِن حريرٍ، فيقول: هذه امرأتُك، فأَكْشِف عن وجْهِكِ، فإذا أنتِ هي، فأقول: إن يَكُ هذا مِن عندَ الله يُمضِه». وتحقق الحلم وتزوج سيدنا محمد من عائشة.
كان سيدنا محمد على غير عادة الرجال في عصرنا هذا يفاخر بحبه لعائشة ولا يخجل من مصارحة البشرية كلها به، وحكى عمرو بن العاص فقال:
«بعَثَني رسولُ الله - ﷺ - على جيشِ ذاتِ السلاسل، قال: فأتيتُه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة»، قال: قلت: فمِن الرِّجال؟ قال: «أبوها إذًا»، قال: قلت: ثُمَّ مَن؟ قال: «عمر» أخرجه الشيخان.
لاحظوا أنه عندما تحدث عن أبي بكر قال أبوها أي نسبه إليها، وأضاف عليه الصلاة والسلام: «لا تؤذوني في عائشة».
ومن شدة حبه لها كان الجميع يحرصون على تقديم الهدايا لها وله يوم يكون عندها، إنه كان عليه الصلاة والسلام حريصًا عليها وعلى رضاها وكان يفهمها ويفهم دواخلها جيدًا، وفي حديث لعائشة أن النبي ﷺ قال لها:
«إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبى» أي أعرف الوقت الذي تكونين فيه غاضبة أو عاتبة عليّ.
فقالت له: كيف ذلك يا رسول الله؟
فقال:
(إذا كنت راضية عني قلت: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم)،
فقالت عائشة رضي الله عنها:
أجل والله ما أهجر يا رسول الله إلا اسمك».
ومنتهى الحب منها له وأقصى ما تملكه هو إظهار هذا الغضب بشكل رقيق، ولأننا بشر كان النبي ﷺ إذا غضبت زوجته وضع يده على كتفها وقال:

[اللهم اغفر لها ذنبها وأذهب غيظ قلبها، وأعذها من الفتن]، وكان عليه الصلاة والسلام يقدر غيرة عائشة التي كانت تردد له دومًا «وكيف لا تغار مثلي على مثلك» تقديرًا واعترافا منها بقدره رغم فارق السن الكبير بينهما، فارق أذابه ما كان يجمعهما من حب كبير، ولأن الحب مقدس عند رب العالمين فلقد كان الوحي ينزل على رسول الله حتى وهو معها.
ومن شدة تعلق رسول الله بها كان لا ينزل الوحي عليه ﷺ وهو في لحاف امرأة غيرها «فعنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:
كان للعلاقة الخاصة بينهما خصوصية شديدة لا تجدها إلا عند المحبين وهو أمر شديد الروعة ما دام في إطار شرعي، فالله حلل بل طالب أن يدلل الأزواج بعضهم البعض.
وتقول عائشة: »كنت أشرب فأناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ، وأتعرق العرق فيضع فاه على موضع فيّ»، رواه مسلم، والعَرْق: العظم عليه بقية من اللحم وأتعرق أي آخذ عنه اللحم بأسناني أي يأكلان ويشربان من نفس الموضع.
وكان يتنزه معها ويصطحبها في سفره، وتحكي السيدة عائشة أنها كانت تغتسل مع رسول الله ﷺ في إناء واحد فيبادرها وتبادره حتى يقول لها دعي لي وتقول له دع لي.
وهناك الكثير من الأحكام الفقهية المنقولة والملتصقة بسيرة عائشة، منها عن أبي قيس مولى عمر الذي قال:
بعثني عبد الله بن عمر إلى أم سلمة وقال: سلها أكان رسول الله ﷺ يقبّل وهو صائم؟ فإن قالت لا! فقل: إن عائشة تخبر الناس أنه كان يُقبّل وهو صائم، فقالت له أم سلمة لا! فقال لها ذلك، فقالت له: لعله لم يكن يتمالك عنها حبًا أما إياي فلا.
وكان رسول الله يدللها فيقول لها: «يا عائش، يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام». متفق عليه.
وكان يقول لعائشة أيضًا: «يا حميراء»، والحميراء تصغير حمراء يراد بها البيضاء.
ومن شدة حبه لها كانت تقول إنه لم يكن يبتعد عنها حتى أيام الحيض، فتقول: «إن رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض».
وكان النبي يعلم جيدًا مدى غيرة عائشة عليه، وذات يوم كان في بيته مجموعة من الصحابة وأبطأت السيدة عائشة في تحضير الطعام فأرسلت السيدة أم سلمة طعامًا فدخلت عائشة لتضع ما أعدته فوجدتهم يأكلون طعام أم سلمة، فغارت وغضبت وأحضرت حجرًا ناعمًا صلبًا وكسرت الإناء الذي أرسلته أم سلمة، فجمع الرسول عليه الصلاة والسلام ما بالإناء وقال لصحابته وهو يضحك: «كلوا كلوا»، ودافع عنها عليه ﷺ معقبًا: »لقد غارت أمكم»، ثم أرسل إناء عائشة لأم سلمة وأعطى إناء أم سلمة لعائشة.
وكانت عائشة فعلا شديدة الغيرة عليه حتى من زوجته الأولى المتوفاة السيدة خديجة وكانت تقول: »ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرها».
ككل زوجين كان محمد وعائشة يتجادلان، ويحكي سيدنا أبو بكر أبوها كيف دخل مرة ووجدها ترد على زوجها فقال لها: »ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ!»، وأراد أن يعنفها فحال النبي ﷺ بينه وبينها، مع أن النبي ﷺ، هو - إذا صح التعبير - المعتدى عليه، وهي التي رفعت عليه صوتها، ومع ذلك حال بينها وبينه، ثم خرج أبو بكر فجعل النبي ﷺ يترضاها –أي يصالح عائشة ويتلطف معها - ويقول: »ألم تريني حلت بين الرجل وبينك - يستشفع بالموقف الدفاعي الذي وقفه

ﷺ - ثم استأذن أبو بكر مرة أخرى فسمع تضاحكهما - النبي ﷺ وعائشة رضي الله عنها قد أزال النبي ﷺ بحسن معاملته هذا الأمر الذي كان سبب هذا الغضب، فضحك أبو بكر وقال بما معناه أحضر حربكما ولا تدعياني إلى سلامكما.
كان رسول الله محمد ﷺ دومًا يذكِّر عائشة زوجته وحبيبته بمقدار حبه لها، فكان يقول لها: «حبك يا عائشة في قلبي كالعروة الوثقى»، أي كعقدة الحبل، فكانت السيدة عائشة تترك النبي حينا وتسأله كيف حال العقدة؟ فيرد عليها عليه الصلاة: »هي على حالها».
وكانت السيدة عائشة تهتم بنفسها وبجمالها، من ذلك ما جاء في الكتب عن ما روته بكرة بنت عقبة: «أنها دخلت على عائشة وهي جالسة في معصفرة - أي ترتدي لباسًا مزينًا أو فيه صفرة - فسألتها عن الحناء، فقالت: شجرة طيبة وماء طهور، وسألتها عن الحفاء فقالت لها: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما له أحسن مما هما فافعلي»، أي أن الزوجة يجب أن تهتم بنفسها من أجل إرضاء زوجها.
واهتمامها بنفسها لم يمنعها من أن تكون شديدة التقوى تصوم كثيرًا وتتصدق كثيرًا وكانت تطلب دومًا من زوجها أن يدعو لها.
وتحكي السيدة عائشة فتقول: «لمَّا رأيتُ مِن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - طِيبَ النَّفْس قلت: يا رسولَ الله، ادعُ اللهَ لي، فقال: «اللهمَّ اغفرْ لعائشةَ ما تقدَّم مِن ذنبِها وما تأخَّر، وما أسَرَّتْ وما اعْلَنتْ» فضحِكتْ عائشةُ حتى سقَط رأسها في حجْرِ رسولِ الله - ﷺ - من الضحِك، فقال: «أيَسرُّكِ دُعائي؟»، فقالت: وما لي لا يَسرُّني دعاؤك؟! فقال: «واللهِ إنَّها لدَعْوَتي».
وكان الرسول ينصح النساء بالتقوى والرفق، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: »قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة عليك بتقوى الله عز وجل, والرفق, فإن الرفق لم يك في شيء قط إلا زانه, ولم ينزع من شيء قط إلا شانه»، وهو نفسه من طالب بالرفق بالقوارير وأوصى الرجال بالنساء خيرًا.
أحب محمد عائشة حبًا شديدًا حتى أنه كان يقسم أيامه بين نسائه فيعدل في الأيام، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي (وفي قول آخر قسمي) فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يَعْنِي بِهِ الْحبّ والمودة؛ لِأَن ذَلِك مِمَّا لَا يملكهُ الرجل وَلَا هُوَ فِي قدرته، وَقَالَ ابْن عَبَّاس - رَضِي الله تَعَالَى عَنْهُمَا -: لَا تَسْتَطِيع أن تعدل بالشهوة فِيمَا بَينهُنَّ وَلَو حرصت، وَقَالَ ابْن الْمُنْذر: دلّت هَذِه الْآيَة على أن التَّسْوِيَة بَينهُنَّ فِي الْمحبَّة غير وَاجِبَة، وَقد أخبر رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أن عَائِشَة أحب إِلَيْهِ من غَيرهَا من أَزوَاجه.
كانت عائشة الأحب إلى قلب محمد ﷺ، إلا أن عائشة كانت تعلم جيدًا مدى حب الرسول للسيدة خديجة، أولى زوجاته، والتى لم يتزوج عليها في حياتها، وحزن عليها بعد وفاتها حزنا كبيرًا حتى سمي عام رحيلها بعام الحزن، وكانت شديدة الغيرة منها حتى بعد وفاتها، وفي بداية زواجهما كان يتركها تلعب على سجيتها، وعندما كانا يتشاجران، كان أبو بكر ينحاز للرسول ﷺ بل كاد يضرب عائشة ذات مرة لأن صوتها كان عاليًا أثناء شجار إلا أن الزوج (ﷺ) دافع عنها.
ورغم تعدد زيجات الرسول (ﷺ) لأسباب سياسية ودينية إلا أن مكانة السيدة عائشة كانت معروفة.
والحق أن الحب كان متبادلا، فكانت عائشة تتجمل وتتحرى ما يعجبه من الطيب وتتحنى لأجله، لم تكن مجرد زوجة بل كانت رفيقة درب وكانت تشرح للنسوة ما يستحي هو من شرحه لهن، وكان يصفها (ﷺ) بالعروة الوثقى، ولذا أخذت عنها الأحاديث النبوية بعد وفاته.

ولكن على الرغم من هذا التفضيل والحب عاشت السيدة عائشة منغصًا عليها وفي جوفها غصة، وذلك لأنها لم ترزق بابن، أمر آخر كان ينغص على عائشة حياتها: زيجات الرسول الكثيرة، فقد عرف عنها غيرتها الشديدة واتخذت من حفصة بنت عمر بن الخطاب حليفة لها، وعندما غارت من زينب بنت جحش وكانت شابة شديدة الجمال اتفقت مع بقية الزوجات على حيلة تصرفه عنها، فكان أن دخل على إحداهن بعد عودته من عند زينب فقالت له: «أكلت مغافير؟»، وهو ثمر حلو كريه الرائحة، وكانت زينب تسقيه عسلا فكانت النتيجة أن امتنع عن شرب العسل عند زينب.

حكاية أخرى: كان قد كتب على أسماء بنت النعمان بن الأسود وكانت شديدة الجمال، فاتفقت عائشة مع بقية الزوجات على زيارتها قبل الزواج ونصحنها أن تستعيذ بالله فور رؤية الرسول، ففعلت حاسبة أنها ترضيه، فأعرض عنها عليه الصلاة والسلام ولم تنجح مساعي الصلح وعادت إلى أهلها، وعندما عرف الرسول ما حدث ضحك (ﷺ) وقال: «إنهن صواحب يوسف، إن كيدهن عظيم».

إلا أن أكثر من غارت منها عائشة كانت مارية القبطية التي أنجبت للرسول الولد إبراهيم، الخلاصة ببساطة أن المرأة عندما تحب أن تتصرف كامرأة حتى ولو كانت زوجة سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

والحكاية تعود للسنة السادسة من الهجرة، بعد زواج الرسول (ﷺ) من زينب بنت جحش، التي أصبحت بعد ذلك من أحب زوجاته إلى قلبه، بعد عائشة بالطبع، كان عليه الصلاة والسلام يستعد لغزو بني المصطلق، وكعادته أجرى قرعة بين نسائه، فكان سهم عائشة الذي خرج، سعدت طبعًا وصحبته، وكان النصر من عند الله.

وفي الطريق وبسبب الريح الشديدة استعجلوا الركب، وعندما حل الليل وهم على مقربة من المدينة قرر القوم أن يرتاحوا، وهنا أكمل ما حدث كما جاء على لسان عائشة - رضي الله عنها. قالت:

«خرجت لبعض حاجتي، قبل أن يؤذن في الناس بالرحيل، وفي عنقي عقد لي فيه جزع «ظفار» (مدينة اليمن). فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم - وأنا بعيدة - فرحلوا بعيري وأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه - إذ كنت خفيفة لم يثقلني اللحم - فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس».

وتكمل السيدة عائشة رواية ما حدث فتقول: «فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتُقدت لرجع إليّ. فو الله إني لمضطجعة، إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليّ فقال: إنا لله وإنا إليه لراجعون»، سألها عما أخرها فلم تجبه، فما كان منه إلا أن ابتعد حتى ركبت البعير ومشى يقودها حتى وصلا إلى المدينة، حتى الآن كل شيء عادي، ولكن المتربصين وأصحاب النفوس المريضة يستغلون مثل هذه الظروف، وعلى رأس هؤلاء اليهود والمنافقون، وعلى رأسهم عبد الله بن سلول، الذي كان يكره الرسول (ﷺ) والمسلمين، ولكنه يظهر غير ما يبطن، فحاك ما شاء من الأكاذيب وافترى على السيدة عائشة وعلى صفوان بما صور له خياله الشرير، وانطلقت الشائعة، بعد أن سمعها وحملها حسان بن ثابت شاعر النبي (ﷺ) وغيره، ولهؤلاء لم تغفر أبدًا عائشة ما قالوه، وانتشرت الشائعة حتى وصلت إلى آذان أبي بكر وأم رومان والرسول نفسه عليه

الصلاة والسلام، الوحيدة التي لم تعلم كانت عائشة، إذ كانت مريضة، كما أسلفنا، بمرض كان يقعدها أيامًا طويلة عليلة.
إلا أنها استغربت ما كان من شأن زوجها (ﷺ) معها، إذ لم يكن على عادته في الاهتمام والحنان بل كان يكتفي بالسؤال ثم يذهب، فاستأذنته في السماح لها بالذهاب إلى بيت أبيها كي تمرضها أمها هناك فأذن لها، وهناك أخبرتها أم مسطح، وهي إحدى قريباتها، بما يتردد، فعادت عائشة غاضبة جدًا والبكاء لا يتوقف، وسألت والديها عن الأمر، فقالت لها أم رومان عبارة هي مثل وحقيقة لا تخرج إلا من فم حكيم، قالت لها:
«أي بنية خففي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها!!».
وكان الرسول (ﷺ) يعاني، قلبه يحدثه ببراءتها وأذناه تصغيان إلى ما يردده الناس حوله، فلجأ إلى سؤال أقرب الناس إليه: أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب، أما الأول فأشاد بعائشة وقال لا نعلم عنها إلا الخير، هو الكذب والباطل، أما علي فقال له طلقها، فالنساء كثيرات، وهو أمر لم تغفره قط عائشة لعلي، ، أما ضرتها زينب بنت جحش فقد أثنت عليها.
احتار الرسول وقرر مصارحة زوجته واستيضاح الأمر منها، فذهب إليها في بيت أهلها وقال لها:
«يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده».
هذه العبارة أغضبت عائشة جدًا، إذ لم تحتمل أن يكون في قلب من تحب لحظة شك بها، فاستنجدت بوالديها اللذين لم يجدا ما يقولانه، وهنا وبكل عزة نفس وثقة البريء قالت:
- «والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني بريئة، لأقولن ما لم يكن. ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني»، واختنقت من كثرة البكاء، حتى نسيت اسم النبي يعقوب وقالت: «سأقول كما قال أبو يوسف، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»، وبعدها بقليل نزل الوحي بآيات النور من الآية ١١ حتى الآية ١٩، وفرح الرسول (ﷺ)، فرحًا شديدًا وقال لعائشة: «أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك».
لم تكن حياة السيدة عائشة مثل حياة بقية أمهات المؤمنين، لذا كل تفاصيلها تستحق أن تروى، وأسلفت في حديث سابق عن شدة حبها لرسول الله (ﷺ) وغيرتها عليه، حتى أن نساءه الأخريات غرن ولجأن إلى السيدة فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، ابنة الرسول (ﷺ) لمخاطبة والدها في الأمر، فذهبت إلى أبيها وكانت عائشة عنده وقالت له:
- «يا أبي، إن نساءك أرسلنني إليك وهن ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة، (أبي بكر الصديق).
فقال لها (ﷺ):
- «أي بنية، ألست تحبين ما أحب؟»، قالت فاطمة: «بلى»، فقال: «فأحبي هذه»، مشيرًا إلى عائشة.
فعادت إليهن وروت لهن ما كان وقالت:
- «والله لا أكلمه فيها أبدًا».
وعندما أتته بعدها زوجته أم سلمة قال لها يا أم سلمة «إن الله قذف في قلبي محبَّتِها»، وبقوله هذا فرض محبتها على كلِّ أحد.

وكان الرسول (ﷺ) يعرف متى تكون راضية عنه ومتى تكون غاضبة، كان يقول لها: «أما إذا كنت راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم»، وأجابته يومها بحب: «أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك».

وفى سنة عشرة من الهجرة حج رسول الله حجة الوداع، وبعدها بقليل في أواخر شهر صفر في السنة الحادية عشرة من الهجرة خرج رسول الله إلى البقيع يزور الراقدين تحت الثرى ويستغفر لهم، ثم عرج على عائشة وكانت تشكو صداعًا وكان عليه الصلاة والسلام يشكو ألما شديدًا في رأسه، فقال لها:

- «وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك؟» ردت وقد غارت كعادتها عليه: «ليكن ذلك حظ غيري! والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك»، فأشرق وجهه الكريم وابتسم وقام يزور بقية نسائه وهو يغالب الألم الذي اشتد عليه.

ووصل إلى بيت ميمونة بنت الحارث وسألها أين أنا غدًا وبعد غد؟ شاعرًا ببعد اليوم الذي يفصله عن يوم عائشة. فأحست نساؤه برغبته هذه وكن يؤثرنه على أنفسهن وقلن جميعا: «لقد وهبنا أيامنا لعائشة، فرد عليه الصلاة والسلام: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، وانتقل إلى بيت الحبيبة تمرضه وتسهر عليه إلى أن حانت اللحظة، لحظة الرحيل، وكان رسول الله ممددًا يضع رأسه في حجر عائشة وتصف هي هذه اللحظة الرهيبة فتقول:

- «وجدت رسول الله (ﷺ) يثقل في حجري، فذهبت أنظر إلى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة»، قلت: «خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق، وقبض رسول الله بين سحري ونحري، فمن سفهي وحداثة سني أنه (ﷺ) قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي».

مات رسول الله والسيدة عائشة على الأرجح في بداية الثلاثين من العمر، وكانت قد عاشت في صحبته الكريمة ما يقرب من العشر سنوات، كانت سنوات ثرية بالأحداث والمواقف، ودفن رسول الله مكان وفاته فهذا هو العرف المتبع بين الأنبياء، وعاشت عائشة في الغرفة المجاورة للقبر لا تفارقه إلا لعمرة أو حج، وعاشت بعد وفاة الرسول (ﷺ) خمسين سنة على ذكراه.

وعاشت حياة حافلة فرضها عليها طبعها النشيط اليقظ، إضافة إلى أن كونها زوجة رسول وابنة أمير المؤمنين من بعده.

فكانت مرجعا للحديث والسنن وما حفظ عندها من قرآن كريم، وكان بيتها مزارًا وكانت تقوم بتلقين زائريها الأحاديث وتجيب عن أسئلة السائلين، وكانوا كما أسلفنا يدعونها «يا أمة»، وبعدها في أيام عثمان تم إقحامها في مشكلات السياسة.

لا نستطيع الحديث عن السيدة عائشة دون ذكر الفتنة الكبرى التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وبعدها موقعة الجمل حين قادت الجيوش بنفسها لمحاربة علي بن أبي طالب ، رابع الخلفاء الراشدين.

وتفاصيل ما أدى إلى الفتنة وما تلاها تحتاج إلى صفحات وصفحات، فما حدث صنع التاريخ الإسلامي، ولكن أذكر أن الرسول (ﷺ) قال لعلي في حياته: «أنه سيكون بينك وبين عائشة أمر» فلما تعجب عليّ أكد الرسول الكريم له الأمر ثم قال له: «إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها».

وبعد موقعة الجمل تذكر عليّ الوصية الكريمة فأرسل أخاها محمد بن أبي بكر ليتفقد هودجها بعد أن علم أن سهمًا قد أصاب يدها، ثم أتاها بنفسه وسألها: «كيف أنت يا أمة؟»
فأجابته: «بخير يغفر الله لك» فقال: «ولك».
ثم أدخلها دارًا بقيت فيها بضعة أيام قبل أن تعود إلى المدينة وجهزها بكل ما تحتاجه من متاع ومونة، وسير معها ولديه الحسن والحسين وسار بنفسه وراءها أميالا مودعًا إياها، ويقال إن السيدة عائشة ندمت أشد الندم على يوم الجمل لدرجة أنها كانت تقول دومًا: «ليتني مت قبل يوم الجمل».
ولم تتهم عليًا يومًا بدم عثمان، ورغم أنها كانت تتمنى غيره للخلافة إلا أنها كانت تردد دومًا أنه أحبّ الناس إلى رسول الله.
ماتت السيدة عائشة على الأرجح ليلة الثلاثاء وكان السابع عشر من رمضان سنة سبع وخمسين من الهجرة، يقال إنها في لحظاتها الأخيرة وكانت في السادسة والستين من عمرها زارها عبد الله بن عباس واستأذن في الدخول وقال لها: «أبشري، ما بينك وبين أن تلقي محمدًا والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، وكنت أحب نساء رسول الله إليه، ولم يكن رسول الله يحب إلا طيبًا، وسقطت قلادتك ليلة الإيواء فأصبح رسول الله وأصبح الناس وليس معهم ماء فأنزل الله آية التيمم فكان ذلك في سببك، وما أنزل الله من الرخصة لهذه الأمة، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين فأصبح ليس مسجد من مساجد الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار».
فأجابته أم المؤمنين: «دعك مني يا ابن عباس، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيًا منسيًا».
ولم تكن آيات الإفك هي الوحيدة التي نزلت في عائشة، ففيها وفي حفصة بنت عمر بن الخطاب نزلت الآية ١٣من سورة التحريم أيضًا.
ولعائشة خصائص عدة خصها الله بها كانت هي نفسها تعدها، فهي التي قالت عن مزاياها «فضلت على نساء النبي (ﷺ) بعشر! لم ينكح بكرًا قط غيري، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري، وأنزل الله براءتي من السماء، وجاء جبريل بصورتي من السماء في حريرة (عندما حلم بها الرسول قبل زواجه منها)، وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بواحدة من نسائه غيري، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي ولم ينزل وهو مع غيري، وقبض وهو بين سحري ونحري، وفي الليلة التي كان الدور عليّ فيها ودفن في بيتي».
ولكن لا يجب أن نغفل هنا ولو عَرَضًا مكانة السيدة خديجة رضي الله عنها، إذ عندما غارت ذات مرة عائشة من ثناء رسول الله (ﷺ) المستمر على خديجة قالت له: «ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق وقد أبدلك الله خيرًا منها»!
فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أبدلني الله عز وجل خيرًا منها، آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحُرمته من غيرها»، ولا يختلف اثنان على حب رسول الله لعائشة وتقديره الشديد وامتنانه لخديجة رضي الله عنهما.
دفنت السيدة عائشة في البقيع قرب صاحباتها زوجات الرسول الأخريات، كما أوصت بعد أن آثرت عمر بن الخطاب على نفسها حين أعطته مكانها قرب أبيها وزوجها، وصعدت في شهر كريم للقاء حبيب فرق الموت بينها وبينه بعد أن طال انتظار اللقاء.

٤ ـ حفصة بنت عمر

الصوّامة القوّامة حفصة بنت عمر بن الخطاب، ابنة الفاروق عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة، لقب بأبي حفص نسبة إليها.
أمها هي الصحابية الجليلة زينب بنت مظعون بن وهب بن حبيب بن حذافة، ولدت قبل بعثة الرسول، عليه الصلاة والسلام، بخمس سنوات وتزوجت من خنيس بن حذافة السهمي، الذي أسلم وهاجرت معه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فكان من أصحاب الهجرتين.
شهد بدرًا وخرج يوم أحد وأصيب، عاد إلى منزله وقامت زوجته على تضميد جراحه، إلا أن الله سبحانه أراد استرداد وديعته، مات خنيس تاركًا وراءه أرملته.، كانت حفصة في الثامنة عشرة من عمرها، وحزن عمر لترمل ابنته الشابة، فلقد رأى حزنها الشديد على استشهاد زوجها رغم إيمانها التام بقضاء الله.
واصلت حفصة حفظها للقرآن وصلاتها وقيامها مسلمة أمرها لله، وقرر والدها عمر أن يسن سنة جديدة وقتها على المجتمع الإسلامي بأن يبحث لابنته عن زوج يؤنس وحدتها، فعرضها على عثمان، الذي كان قد فقد السيدة رقية منذ فترة قريبة وكان قلبه لا يزال يقطر حزنا عليها، فرفض قائلا: إنه لا حاجة له في النساء.
ثم عرضها على أبي بكر الذي صمت ولم يرد، هنا غضب الفاروق بشدة وذهب لرسول الله شاكيًا متضايقا، فابتسم عليه أفضل الصلاة والسلام وقال له:
- «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة»، وبالفعل تزوجت حفصة من نبينا الكريم
فى سنة ثلاث من الهجرة لتصبح رابع زوجاته وإحدى أمهات المؤمنين.
وتزوج عثمان من أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، وكانت هذه الزيجات منتشرة، فعمر نفسه تزوج من أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب.
بعد زواج حفصة من رسول الله التقى عمر بأبي بكر عندها فقال له:
- «لا تغضب مني يا عمر فإن رسول الله قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها».
كانت حفصة تجادل الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، فسمع أبوها بالأمر فأتاها زاجرًا وطلب منها ألا تفعل مثل عائشة، لأن الرسول إن كان يغفر لعائشة فهذا لحبه لها وأضاف:
- «والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك».
كانت السيدة حفصة محبة للعلم فتعلمت الكتابة على يد الصحابية الشفاء بنت عبد الله، أول معلمة في الإسلام، وكانت تقرأ وتحفظ دومًا القرآن الكريم،
وللسيدة حفصة حكاية مع سيدنا محمد تسببت بنزول آية قرآنية، ذات يوم كان رسول الله عند حفصة فاستأذنته في زيارة عائشة، وكانت عائشة صديقتها المقربة معها كل أسرارها.
عندما عادت وجدت السيدة مارية عنده، فانتظرت لحين خروجها، ثم دخلت حزينة متأثرة وقالت له باكية:

- «يا نبي الله لقد جئت إلي بشيء ما جئت به إلى أحد من نسائك في يومي وفي بيتي وعلى فراشي».
وكى يطيّب خاطرها وعدها بل أقسم إنه لن يقرب مارية بعد ذلك اليوم، وطلب منها أن تكتم الأمر وتحتفظ بالسر، إلا أن حفصة لم تستطع كتمانه عن عائشة صديقتها، وعلم رسول الله بالأمر، خاصة بعد أن ذاع بين نسائه، فأقسم ألا يجتمع بهن شهرًا وأن يعتزلهن، وفعلًا اعتزلهن شهرًا ووقتها نزلت الآية الكريمة: «يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلا».
وهنا خيّر الرسول زوجاته بين الفراق أو البقاء معه، فاخترن البقاء معه على الحياة الدنيا، إلا أنه طلق حفصة، فحزن عمر بن الخطاب حزنا شديدا. لينزل جبريل على النبي ويطلب منه أن يرجع حفصة فإنها صوامة قوامة وأنبأه أنها ستكون زوجته في الجنة، وبهذا يكون جبريل نفسه قد شهد لحفصة.
بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كان لحفصة فضل كبير في جمع القرآن الكريم، كانت تحفظ الكثير من الأيات فكانت مرجعًا مهما.
خاف سيدنا عمر أن يأخذ الأجل من حفظوا القرآن الكريم، لذلك اقترح على الخليفة أبي بكر الصديق أن يجمع القرآن الكريم، وتحمس أبو بكر للفكرة وأوكل إلى زيد بن ثابت الأنصاري الذي كان يكتب الوحي لرسول الله بجمع القرآن.
بدأ الجمع في عهد أبي بكر واكتمل في صحيفة واحدة في عهد عمر، استغرق جمع السور والآيات من زيد ثلاث سنوات، وعندما أصبحت جاهزة عهد عمر إلى ابنته حفصة بأول نسخة كاملة من القران الكريم كي تبقى معها.
وفِي عهد سيدنا عثمان كتبت عدة نسخ كي توزع على البلاد وتم الاعتماد على نسخة السيدة حفصة للنسخ منها، وقام بهذه المهمة عبد الله بن الزبير، سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكانت السيدة حفصة أيضًا من حفظة الأحاديث النبوية.
عاشت حفصة بعد وفاة زوجها عليه أفضل الصلاة والسلام زاهدة مثل أبيها متعبدة، قوامة، صوامة حتى وصل سيدنا على بن أبي طالب إلى الخلافة، وأرادت أن تخرج مع صديقة عمرهاعائشة في موقعة الجمل إلا أن أخاها عبد الله بن عمر أشار عليها بأن تبقى في بيتها وألا تشارك مع طرف ضد آخر، وقد كان.
عاشت السيدة حفصة حتى السنة الخامسة والأربعين من الهجرة، توفيت حفصة بالمدينة المنورة، صلى عليها أمير المدينة وقتها مروان بن الحكم، كانت حسب أغلب الروايات في الستين من عمرها ودفنت في البقيع.
رحم الله ابنة عمر بن الخطاب وزوجة محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

٥ - زينب بنت خزيمة

عرفت بأم المساكين حتى قبل دخولها الإسلام؛ فهي من أيام الجاهلية، وقبل أن تدخل ديننا الحنيف وهي تعرف بكرمها وحبها للفقراء والمساكين، لكثرة إحساسها بالفقراء وصدقاتها، هي واحدة من أمهات المؤمنين اللواتي عشن بهدوء ورحلن بهدوء، ليس هناك الكثير من المعلومات عنها، ولدت السيدة زينب بنت خزيمة ثلاثة عشر عامًا قبل البعثة النبوية المباركة، وقد ذكر المؤرخون أنها قبل زواجها من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كانت قد تزوجت من عبد الله بن جحش، لكن الأخير استشهد في غزوة أحد عندما كان يقاتل في رحاب رسول الله.

أمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، التي قيل عنها: «لا تُعْلَم امرأة من العرب كانت أشرف أصهارًا من هند بنت عوف».

يعتقد في نسب هذه السيدة الكريمة أن إخوة وأخوات السيدة زينب لأمها هم كالتالي: أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث زوجة العباس عم رسول الله، وهي أم عبد الله بن عباس، ولبابة الصغرى هي زوجة الوليد بن المغيرة ووالدة خالد بن الوليد، وعزة بنت الحارث، ويذكر آخرون أن أخوات السيدة زينب بنت خزيمة لأمها هن: ميمونة بنت الحارث، وأسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب، وسلاّمة (سلمى) بنت عميس زوجة حمزة بن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي أخت أم المؤمنين السيدة ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها لأمّها.

وهناك مؤرخون آخرون قالوا إنها كانت قد تزوجت من الطفيل بن الحارث، إلا أن الطفيل طلقها، فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث المطلبي، وقد استشهد الأخير في غزوة أحد، ولكن هذه المعلومات ليست مؤكدة، ولدت في أم القرى بمكة قبل البعثة بثلاثة عشر عامًا، وهي خامس زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام، عندما استشهد زوجها في أحد حزنت عليه حزنًا شديدًا، فقد تركت أهلها عندما أسلمت واصطحبت زوجها، وجدت نفسها وحيدة فحزنت حزنًا شديدًا، ولكنها رضيت بقضاء الله، ومرت شهور العدة، فإذا برسول الله يخطبها، فأوكلت له أمرها ووافقت.

إذًا فالزواج حدث بعد عشرين يومًا من زواج الرسول من السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، في شهر رمضان المبارك من العام الثالث للهجرة النبوية الشريفة، وبالتحديد في الشهر الحادي والثلاثين للهجرة النبوية.

كان صداقها أربعمئة درهم، وبنى لها زوجها عليه الصلاة والسلام غرفة قرب السيدة عائشة والسيدة حفصة بنت عمر، ورغم غيرة النساء من بعضهن البعض إلا أن زينب لم تحاول الدخول في منافسة أو خلافات، وعائشة وحفصة أيضًا كانتا تعلمان أن زواج سيدنا محمد بها كان رحمة وعطفا منه عليها، كرست زينب وقتها لرعاية المساكين والفقراء وفي العبادة لذا استمر الناس في مناداتها بأم المساكين، وكانت تهتم كثيرًا بأهل الصفة وهم الذين ينقطعون للعبادة في المسجد النبوي الشريف وكانوا يدعون لها كثيرًا.

إلا أن حياة زينب بنت خزيمة لم تكن طويلة، بقيت ما يقرب من ثمانية أشهر في بيت النبوة وقيل في رواية إنّها أقامت عنده شهرين أو ثلاثة، ثم انتقلت إلى ربها في السنة الرابعة من الهجرة وكانت في الثلاثين من عمرها، لم تروَ عنها أي أحاديث ربما لانشغالها بأحوال الفقراء ولأنها لم

تمكث طويلا، زينب بنت خزيمة كانت أولى زوجاته موتا في المدينة، وهي أول من دفن في البقيع، والوحيدة التي ماتت في حياته في المدينة ففازت بصلاته عليها والدعاء لها، زينب بنت خزيمة التي تختصر حياتها في آية: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان».

٦ - أم سلمة

هي امرأة من سادات قريش وواحدة من أكثر النساء فصاحة في عصرها، قارئة، مضطلعة، أديبة ناقلة للحديث، هند بنت أبي أمية الشهيرة بأم سلمة، هي ابنة عّم خالد بن الوليد، كانت قبل زواجها من رسول الله زوجة أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، كانت جميلة جدًا ومن نسب عريق وأصل رفيع، هي أول من آمن من النساء بعد السيدة خديجة وبناتها، اشتهر والدها بالسخاء الشديد وتربت في بيت عز وكرم، أول أزواجها كان أبو سلمة بن عبد الأسد رجل شجاع وكريم وشقيق سيدنا محمد في الرضاعة وابن خاله، عاشت هند أم سلمة سعيدة مع زوجها الذي كان يحبها ويرعاها رعاية شديدة إلى أن دخلا الإسلام وبدآ مرحلة جديدة في حياتهما، وعانت هي وزوجها معاناة شديدة بسبب أذى الكفار لكل أتباع الرسول، وطلب منهما الرسول الهجرة للحبشة فهاجر الزوجان بصحبة سيدنا عثمان وزوجته رقية ابنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وبقيا فترة هناك ثم اشتد حنينهما إلى مكة فقررا العودة خاصة بعد عودة رفيقيهما عثمان ورقية، ولكن عاد أذى أهل قريش وتكرر فكان الأمر الإلهي بالهجرة إلى المدينة، واستقبلت المدينة المنورة الرسول ومن معه وتآخوا جميعًا وتعاهدوا على التقوى، وأصبحت أم سلمة من أوائل النساء إيمانا وصاحبة الهجرتين، ولهجرتها للمدينة حكاية شجاعة وإقدام، فقد رفض زوجها أبو سلمة الخروج إلى المدينة سرًا وهو سيد قوم وأحد سادة البلاد، إلا أن رجال بني المغيرة رأوهما فما كان منهم الا أن أخذوا أم سلمة وحبسوها عندهم سنة حرموها فيها من زوجها وابنها، كانت تقضي وقتها في البكاء حتى مر بها أحد أبناء عمومتها وطلب من محتجزيها إطلاق سراحها وإعادة ابنها إليها، وامتطت بعيرها وحدها متجهة إلى زوجها بعد طول فراق، ولكن ولأن الله دومًا في عون العبد المؤمن فقد أرسل إليها عثمان بن طلحة ولم يكن قد أسلم بعد وسألها من بصحبتها فأجابته لا أحد إلا الله، فأصر على مصاحبتها وعلى عدم تركها تسافر من مكة للمدينة وحدها، الله في عون العبد ما دامت ثقته فيه كبيرة، وكان رفيقا كريمًا ولو فكرنا بما مرت به أم سلمة لوجدنا أنه ليس بالسهل أبدًا ويحتاج إلى قوة احتمال وإيمان، امرأة تم تفريقها عن زوجها مدة عام وانتزع منها ابنها حتى خلعت يده، إلا أنها بقيت صابرة محتسبة مؤمنة راضية باختبار الله لها، وعادت إلى زوجها وعاشت في جو عائلي وروحانية كبيرة بصحبة زوجها المحب أبي سلمة وأولادها منه زينب وعمر وسلمة ودرة.

لم يكن أبو سلمة مجرد رجل صاحب حسب ونسب فحسب، بل زوجًا مخلصًا مدللا لزوجته ومغدقا عليها من كرمه.

كان أبو سلمة أيضًا محاربًا جسورًا، شارك في بدر ثم شارك في أحد، وأصيب بسهم في ذراعه وعاد إلى المدينة وبقي شهرًا تداويه زوجته وتقوم على رعايته وخدمته مثل كل زوجة محبة، وبعد شهرين أراد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أن يغير على بني أسد بعد أن بلغه أنهم ينوون محاربته، واختار سرية من مئة وخمسين رجلا من خيرة فرسان المسلمين وجعل على رأسهم أبا سلمة المخزومي، كان جرح أبي سلمة قد التأم ظاهريًا فقط وهذا ما اكتشفه بعد دخوله في معارك استمرت أيامًا طوالا انتصروا فيها وعادوا بالغنائم الكثيرة، غاب تسعة وعشرين يومًا عن زوجته وعاد مريضًا نحيفًا متألمًا، وارتمى على سرير المرض وتدهورت حالته، وزاره رسول الله ليدعو

له وبقي قربه حتى أسلم روحه لخالقه وأغمض عينيه الرسول وكبّر عليه تسع مرات معتبرًا أنه يستحق الكثير من التكبير لما قدمه للإسلام، وكان آخر ما قاله أبو سلمة: «اللهم اخلفني في أهلي بخير»، وذكر في كتب عدة أن أم سلمة قالت لزوجها قبل وفاته إنها قد سمعت أن المرأة إن مات زوجها وهو من أهل الجنة ولم تتزوج بعده جمع الله بينهما في الجنة، لذا سأعاهدك ألا أتزوج بعدك، وعاهدني ألا تتزوج بعدي، فقال لها: أتطيعينني فيما أطلبه منك؟

فقالت: نعم.

فقال لها: إذا مت تزوجي من بعدي.

ورفع يده للسماء قائلا: «اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلا خيرًا مني لا يحزنها ولا يؤلمها».

هذه العبارة استوقفتني كثيرًا، فأي حب كان في قلب هذا الرجل لزوجته حتى أنه تمنى لها زوجًا لا يحزنها ولا يؤلمها؟ عندما قرأت هذه العبارة توقفت أمامها كثيرًا، فأي رجل هذا الذي يحب زوجته كل هذا الحب؟ أي حب هذا الذي يجعل رجلا يدعو لزوجته بالزواج بمن هو خير منه؟ لو قارنا بين مجتمعاتنا التي من المفترض أن تكون أكثر رقيًا لوجدنا أن المجتمعات الخارجة من الجاهلية كانت أكثر احترامًا للمرأة وأكثر رفقًا بها، كان يسمح لها بالزواج عدة مرات ولم تكن هناك نظرة الإدانة للمرأة المطلقة، بل كان هناك حرص على زواج المرأة ولو فقط من أجل وجودها مع من يؤنس وحدتها، النظرة للمرأة تغيرت مع الحكم العثماني، تحولت المرأة من كائن لشيء، أو مجرد شخص يتحكم به مجتمع ذكوري، بعد انقضاءعدة أم سلمة تقدم لخطبتها سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب، فلم تقبل متعللة بأن لديها أطفالاً صغارًا.

ثم بعث رسول الله من يخطبها له صَلى الله عليه وسلم، ورغم فرحتها العارمة إلا أن أول من خطر على بالها كان السيدتين عائشة وحفصة، فأحست بالغيرة فأرسلت لرسول الله تقول له: «أنا امرأة شديدة الغيرة، كبيرة في السن، لدي أطفال صغار، وليس لها ولي شاهد على زواجي»، فأرسل إليها رسول الله من يقول لها: إنه سيدعو الله أن يذهب عنها غيرتها، وأنه أكبر منها سنا، وأن الله سيتولى أولادها وأن رسول الله سيرعاها، وتحققت دعوة أبي سلمة وأبدلها الله بخير منه.

تزوج سيدنا محمد أم سلمة في شهر شوال من السنة الرابعة من الهجرة، شعرت عائشة بالغيرة منها في البداية فذهبت إلى حفصة تحكي لها عن جمال أم سلمة، فأجابتها حفصة أن فرق السن لصالحهما، فمهما كانت جميلة إلا أن هذه آثار جمال سابق، وكانت هذه الكلمات كفيلة بتهدئتها، ودخلت أم سلمة بيت النبوة بصحبة ابنتها زينب التي كان رسول الله يحبها حبًا جمًا، وكان لوجود زينب بنت أبي سلمة أثر كبير عليها، إذ أصبحت عندما كبرت واحدة من أفقه نساء عصرها.

وقد نزلت آية من أشهر الآيات القرآنية في بيتها هي: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا»، ويبدو أن السيدة أم سلمة كانت تفخر على أمهات المؤمنين بأن هذه الآية قد نزلت في بيتها، مكانتها كانت كبيرة عند رسول الله ﷺ، وكان يصلي في بيتها.

كانت فقيهة جدًا، وروت ٣٧٨ حديثا، وبهذا تكون أكثر نساء النبي رواية للحديث بعد السيدة عائشة، وابنتها زينب نقلت عنها الكثير من الأحاديث، وكانت فقيهة يتم الرجوع إليها في الفتاوى والأحكام خاصة في شؤون المراة، شاركت أم سلمة رسول الله في عدة غزوات وفي فتح مكة كما كانت بصحبته في حجة الوداع.

وللسيدة أم سلمة موقف وحكاية في صلح الحديبية، وكانت رؤيا الرسول بدخول البيت ورؤى الأنبياء وحي، وتوجهوا لأداء العمرة وكانت زوجته أم سلمة بصحبته، إلا أن قريشًا منعتهم من

دخول مكة رغم أنهم كانوا قاصين شعورهم ومحلقين، وكان بعدها صلح الحديبية والهدنة الشهيرة، وتذمر كثيرون من عدم أداء العمرة ومن بينهم سيدنا عمر بن الخطاب الذي اعترض بشدة على عدم دخول مكة والعمرة رغم أن المسلمين كانوا هم المنتصرون، طلب منهم الرسول عدة مرات أن يحلقوا ويقصروا إلا أنهم لم يتحركوا، فدخل على أم سلمة حزينا لعدم طاعتهم له، فأسدت له النصيحة الحكيمة إذ قالت له: «اخرج، ثم لا تكلم أحدًا حتى تنحر بدنك، ثم تدعو بحالقك، فيحلق لك». وفعل ما نصحته به أم سلمة، فلما رَآه الصحابة قاموا وقلدوه وأطاعوه، وبهذا تكون أم سلمة قد جنبت الصحابة الموجودين إثم مخالفة رسول الله.

ومن النعم التي خَص بها الله أم سلمة أنها رأت سيدنا جِبْرِيل في صورة دحية الكلبي ، وكي نشرح هنا المقصود ليس أنه تلبس بجسم دحية بل تراءى لها على صورة دحية، أي أن جِبْرِيل لم يصبح أو يصير دحية الكلبي بشخصه، أو أنه تحول إلى شخص بشري، بل رأته أم سلمة على هيئته.

عندما سئلت عن أكثر دعاء كان يردده الرسول عليه الصلاة والسلام كان: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

عاشت أم سلمة حتى بلغت الثمانين وقيل التسعين من عمرها، شهدت الخلفاء الراشدين الأربعة ومعاوية، وتوفيت في عهد يزيد بن معاوية سنة واحد وستين، بعد مقتل سيدنا الحسين بعد أن حزنت عليه حزنا شديدًا، هي آخر من توفي من أمهات المؤمنين، وإذا ما استعدنا بسرعة قصة حياة أم سلمة لوصفناها بالمرأة المحظوظة، فقد ولدت في أسرة عريقة وتزوجت رجلا أحبها حبًا كبيرًا، وعندما وافته المنية أبدلها الله خيرًا منه، روت الحديث وشاهدت سيدنا جِبْرِيل وصلى النبي في بيتها، كل هذا يجعلها من أكثر النساء حظًا، ومعظم رزقها كان حبًا وعلمًا، اللهم أكثر من هذين الرزقين في حياتنا.

٧ - جويرية بنت الحارث

جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن جذيمة الخزاعية المصطلقية، هي سيدة قومها، وكان أبوها قائد بني المصطلق الذين كانوا ينوون محاربة رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، فلما سمع بمؤامراتهم خرج لهم حتى لقيهم عند بئر ماء يقال لها «المريسيع» من ناحية «قديد»، فاقتتلا، وهزم المسلمون بني المصطلق، وقتِل الحارث، أبو برة، وزوجها مسافح بن صفوان المصطلقي.

وأُخِذ الرجال عبيدًا والنساء سبايا، ووقعت «برة» في الأسر، وهي سيدة قومها، كانت في العشرين من عمرها، ورميت السهام، فكانت من نصيب ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فما كان منها إلا أن كاتبته على نفسها، أي كتبت على نفسها عهدًا أن تفتدي نفسها بالمال، ولا تتزوج من «ثابت»، وذهبت عند رسول الله كي يعينها على ما كتبته، فلم تكن تمتلك المال الكافي، وطلبت منه أن يعينها في مكاتبتها، فقال لها عليه الصلاة والسلام: «هل لك في خير من ذلك؟»، فسألته: «وما هو يا رسول الله؟»، فقال: «أقضي كتابتك، وأتزوجك»، فقبلت، وقال عليه الصلاة والسلام: «قد فعلت»، وغيَّر رسول الله اسمها من «برة» إلى «جويرية»، وعندما علم المسلمون بالزواج أعتقوا من كن بين أيديهم من سبايا بني المصطلق؛ لأنهم أصهار رسول الله، فأعتق بسبب الزيجة مائة حتى قالت «عائشة»: «فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها»، وكانت «جويرية» تحزن بسبب تفاخر زوجات الرسول عليها، إذ كن يقلن لها: «لم يتزوجك رسول الله، إنما أنت ملك يمين»، فأخبرته، فرد عليها قائلا: «ألم أعظم صداقك؟ ألم أعتق أربعين رقبة من قومك؟»، ويقول ابن عمر إن حزام بن هشام قد حدثه بأن «جويرية» رأت رؤيا قبل زواجها من رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، بثلاث ليال، كأن القمر أقبل يسير من يثرب حتى وقع في حجرها، فلم تخبر أحدًا برؤياها هذه إلا بعد زواجها من رسول الله، ﷺ.

أسلمت «جويرية»، وحسن إسلامها، وكانت تقضي وقتا طويلا في الصلاة والتسبيح حتى قال لها الرسول عليه الصلاة والسلام: «ألا أعلمك كلمات تقولينها؟ سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته».

تزوج رسول الله «جويرية» وهي ابنة عشرين سنة، وتوفيت وهي ابنة خمس وستين، سنة خمسين من الهجرة، وصلى عليها مروان بن الحكم، ودفنت بالبقيع مع أمهات المسلمين، هي من أمهات المؤمنين اللاتي لم يأخذن حقهن في التاريخ إلا أنه يبقى رفضها العبودية، واعتزازها بحريتها أمرًا تفخر به بنات جنسها، ويقتدين بها.

٨ - زينب بنت جحش

ذكر القرآن الكريم قصتها كما وردت أيضًا في السيرة النبوية، هي ابنة عمة الرسول عليه الصلاة والسلام أميمة، وجدهما واحد هو عبد المطلب، وهي أخت الصحابي والفارس عبد الله بن جحش، وأخت أبي أحمد بن جحش أحد شعراء الإسلام المعروفين، ولدت السيدة زينب بنت جحش في مكة المكرمة قبل الهجرة بثلاثة وثلاثين عامًا، هي من عائلة من سادة قريش ذات نسب رفيع وكانت جميلة جدًا، أخوالها الحمزة أسد الله والعباس الكريم، من خالاتها صفية بنت عبد المطلب. كانت فخورة جدًا بنسبها لدرجة أنها كانت كانت تقول: أنا سيدة أبناء عبد شمس، ظلت تقول هذا حتى أصبحت واحدة من سيدات بيت النبوة فتوقفت عن هذا القول، كانت السيدة زينب من أوائل الذين آمنوا بدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام وتحملت مع بقية المؤمنين أذى الكفار حتى أعطاهم الله سبحانه وتعالى الإذن بالهجرة فرحلت مع من رحل إلى المدينة المنورة، كانت زينب في إيمانها شديدة التقوى تقوم الليل وتصوم كثيرًا، كريمة معطاءة تعطي المساكين والمحتاجين.

ولزواجها من رسول الله حكاية سجلها القرآن الكريم، بدأت عندما خطبها سيدنا محمد لمولاه وربيبه زيد بن حارثة، وعندما علمت بالأمر اندهشت بشدة وقالت: كيف لي وأنا سيدة عبد شمس أن أتزوج واحدًا من الموالي؟ كيف لواحدة في حسبها ونسبها أن تتزوج ممن ليس في نفس مستواها الاجتماعي كما نقول في أيامنا هذه؟ ولمن لا يعلم فزيد بن حارثة كان عبدًا اشترته السيدة خديجة ووهبته لرسول الله الذي أعتقه وأعطاه اسمه، فكان ينادى بزيد بن محمد، إلى أن نزلت الآية التي تقول (ادعوهم لآبائهم) كي لا تختلط الأنساب، ولأن الإسلام جاء بعد الجاهلية فقد كانت لا زالت هناك الكثير من الأفكار المسيطرة، عندما رفضته قال لها الرسول عليه الصلاة والسلام: «بل انكحيه فإني قد رضيته لك»، وقبل أن تجيب زينب نزلت الآية الكريمة: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب: ٣٦]، هنا لم يعد أمام زينب وأخيها عبد الله أي مفر، أمر الله نزل أن ينفذ ما يقوله رسول الله، فقالت زينب بعد أن سمعت هذه الآية: «إذًا لا أعصي رسول الله ﷺ وقد أنكحته نفسي».

وكان زواج زينب من زيد أصعب اختبار إيماني لامرأة. واحدة في حسب ونسب زينب وجمالها تتزوج من مولى لا تحبه، ولكن الله سبحانه كان يريد تلقين المسلمين درسًا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس بالأصل ولا بالمال والسلطة، رضخت للأمر الإلهي رغم رفضها الداخلي لهذه الزيجة، رغم إحساسها أنها تتحدى أفكارًا تربت عليها وموروثات اجتماعية قوية وإحساسها بنفسها وأصلها وجمالها وأنها في قرارة نفسها كانت تقول أستحق من هو أفضل، ولكنها إرادة الله ورسوله وكان يجب عليها أن تقبل وتذعن وتوافق، وتزوجت زينب من زيد وتعلم المسلمون هذه القاعدة، أن لا فرق بين عربي وأعجمي أو بين شخص وآخر إلا بالتقوى، ولكن زيدًا لم يكن وسيمًا.

مر الوقت ولَم تنجح زينب في أن تتقبل زيدًا، ورغم أنها قبلت الزواج منه إلا أنها كانت تشعره دومًا أنها أفضل منه، وكانت تتعالى عليه مذكرة إياه بمكانتها وتنفر منه، ولأن زيد هو ربيب رسول الله فقد تعود على حفظ كرامته وعدم قبول الإهانة أو سوء المعاملة، فكان يشتكي لرسول الله أذيتها له وكبرها عليه، وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول له: «أمسك عليك زوجك

واتق الله»، وبقي زيد على هذا الحال يذهب لرسول الله ويشتكي زينب ورسول الله يجيبه دومًا بنفس الرد، وكان في هذا الأمر حكمة بالغة من رب العالمين؛ ألا وهي تحطيم التقاليد الجاهلية، إضافة إلى حكمة أخرى أو قاعدة جديدة ينص عليها الإسلام وتختلف عن العادات والتقاليد الجاهلية، استحالت الحياة ما بين زينب وزيد حتى أصبح لا بد من فراق وتم الطلاق، وهنا نزلت الآية التي تقول ما معناه لا تبنّي في الإسلام، وأن زيدًا وإن حمل اسم محمد فهو ليس بابنه، وبالتالي لا تحرم عليه زوجته، وأن أي علاقة تحريم مبنية فقط على علاقة الدم، سيدنا محمد خيّر زيد بعد أن أعتقه بين العودة لوالده أو البقاء معه فاختار البقاء معه، فما كان من رسول الله إلا أن قال أمام قريش: «أشهدكم أن زيدًا ابني أرثه ويرثني».

ثم نزلت الآية التي تقول: «وما جعل أدعياءكم أبناءكم» والآية التي تقول: «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم»، هنا وإرساءً لقاعدة تسمح بزواج الرجل من طليقة من تبناه، بعد انقضاء عدة زينب أرسل رسول الله صَلى الله عليه وسلم زيدًا إليها وقال لها إن الرسول يطلبها فأجابت: «ما أنا صانعة شيئا حتى أوامر الله عز وجل»، أي أنها باختصار تفوّض كل أمورها لرب العالمين عز وجل، ثم دخلت مسجدها، ونزل القرآن الكريم وجاء رسول الله صلى الله فدخل عليها بغير إذن، وكانت تقول بفخر أمام أمهات المؤمنين: «زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع السماوات».

وأصبحت زينب أمًا للمؤمنين، بأمر مباشر من السماء.

تزوج سيدنا محمد من السيدة زينب بنت جحش لتحطم التقاليد الجاهلية مرتين؛ مرة بزواجها من زيد ومرة بزواجها من سيدنا محمد، بعد زواجه من زينب دعا الرسول الناس على خبز ولحم وجاء قوم كثر يأكلون ويذهبون، حتى قالت زينب: لم يعد لدي من أدعوه، فأمرهم برفع الطعام، وذهب عند السيدة عائشة ثم عاد إلى زينب فوجد ثلاثة أشخاص ينتظرون الطعام، فعاد إلى حجرة عائشة، ولما ذهب القوم أخبرته زينب فعاد إليها وأخرى ستارًا، وهنا أنزلت آية الحجاب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا) [الأحزاب: ٥٣]، ومن بعد هذه الآية سنت قاعدة مهمة جديدة، أن على الناس أن يستأذنوا قبل أن يدخلوا على رسول الله، وألا تتزوج نساؤه من بعده أحدًا.

دخلت زينب بعد عائشة وحفصة رضي الله عنهما، ولكن غيرة عائشة كانت كبيرة، فزينب ابنة عمة الرسول جميلة، ونزلت آيات قرآنية خاصة بها، ولكن قرب زينب من الله وهمتها في خدمة الإسلام جعلها تقول إنها كانت في مستواها في السمو وفي المنزلة الرفيعة، وكان الحبيب المصطفى يحب البقاء عند زينب، فقد كان محبًا لصفاتها وكرمها معه، كانت تحب أن تسقيه العسل. ولأن الغيرة مرة، فقد قررت عائشة أن تحتال كي يخفف رسول الله من زياراته لزينب، وطبعًا استعانت بمن؟ بصديقتها السيدة حفصة بنت عمر، فكان كلما أتى من عند زينب عند إحداهما تقولان له: «أكلت مغافير؟ وهو نوع من البَقْلَة» فيرد بلا ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش، وأقسم ألا يشرب منه ثانية، وهنا أنزل الله الآية التالية: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) [التحريم: ١]، وكان هذا درسًا للجميع أولهم رسول الله أنه لا يجب لإرضاء زوجاته

أن يقسم على تحريم طعام، ودرس للسيدتين عائشة وحفصة ألا تبعدا رسول الله عما يحب، وعرفتا مكانة زينب بنت جحش.
وبعد زواجها من رسول الله بدأت زينب تقتدي به في كثير من تصرفاتها، فأصبحت زاهدة في كثير من أمور الدنيا، وكانت كريمة اليد تجود على المحتاجين بنفس راضية، وكان الرسول دائمًا يقول عنها إنها بينهن الأطول يدًا، في البداية لم تفهم النساء معنى الوصف فكن يضعن أيديهن ويقسنها إلى أن عرفن أنها أطول يدًا فيهن في الخير والصدقات.
وصفها رسول الله بأنها أوّاهة أي أنها خاشعة متضرعة تسجد كثيرًا وتحرص على صلتها بخالقها بكل الطرق، كانت زينب ترافق الرسول في رحلات الجهاد وكانت معه في حصار الطائف وفي حجة الوداع، وقال لهن يومئذ رسول الله «هذه ثم ظهور الحصر» أي أنهن بعد وفاته سيلزمن البيت، وقد كان، فلم تحج بعد هذه الحجة السيدة زينب بنت جحش وقرت في بيتها، فعلت هذا أملا في أن يجمعها الله برسول الله في الآخرة وفقا لحديثه الشريف: «أيكن اتقت الله ولم تأت بفاحشة مبينة ولزمت ظهر حصيرها فهي زوجتي في الآخرة».
كانت زينب تقية وقد تصرفت بحسن خلق في حديث الإفك، فلم تقل في عائشة إلا خيرًا، وقد امتنت عائشة لموقف زينب فكانت تمددها دومًا حتى أنها قالت عنها: «لم أرَ امرأة خيرًا منها، وأكثر صدقة، وأوصل للرحم وأبذل لنفسها في كل شيء يتقرب به إلى الله عز وجل من زينب».
توفيت السيدة زينب في السنة العشرين من الهجرة وهي في الثالثة والخمسين من عمرها، وبذلك تحققت نبوءة رسول الله: «أطولكن ذراعًا أسرعكن لحوقا بي»، وفعلا كانت أولى نسائه لحوقا به.
وكانت زينب بنت جحش قد أوصت أن تحمل على سرير رسول الله ويجعل عليه نعشها، وعندما علم عمر بن الخطاب بهذا طلب ألا يمشي وراءها إلا ذو رحم، هنا تدخلت السيدة أسماء بنت عميس ووضعت فوقها نعشا مغطى بثوب، فسمح للجميع بالخروج وراءها، وبهذا تكون زينب أول امرأة غطيت بالنعش وحملت إلى قبرها في البقيع، صلى عليها عمر وأدخلها إلى قبرها أولاد أختها.

٩ - أم حبيبة بنت أبي سفيان

اسمها رملة وكنيتها أم حبيبة، هي ابنة أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، والدها زعيم مكة وقائدها، أمها صفية بنت أبي العاص بن أمية، وهي أيضًا عمة عثمان بن عفان - - وهي من بنات عم الرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام - أخوها معاوية بن أبي سفيان، وعمتها أم جميل زوجة أبي لهب التي ذكرت في القرآن الكريم «بحمالة الحطب».

ولدت قبل البعثة النبوية بسبعة عشر عامًا، كانت رملة متزوجة من عبيد الله بن جحش وأسلمت مع زوجها، وولدت له ابنته حبيبة التي أصبحت تكنى بها فعرفت دوما بأم حبيبة بدلا من رملة، تقول إحدى الروايات إن زوجها في الحبشة ارتدَّ عن الإسلام واعتنق المسيحية ثم مات.

تحدت رملة والدها وأصرت على الإسلام. كان إسلامها صدمة كبيرة لأبيها وحاول كثيرًا أن يثنيها عنه ولكنها كانت دومًا تجيبه قائلة: «أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله». تمسكت بإسلامها وهي ابنة سيد قومها، وتحدت الجميع وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش في الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة.

وفي الحبشة اعتنق زوجها المسيحية، لكنها أصرت على إسلامها حتى عرفت بين صحابة رسول الله بثباتها على دينها مهما تغيرت حولها الظروف.

وكانت لأم حبيبة رؤى تتحقق، من بينها رؤية رأت فيها تغير أحوال زوجها واعتناقه النصرانية، ولما أخبرته بها لم يأبه، إلى أن اعتنق فعلًا المسيحية وحاول أن يقنعها باعتناقها أيضًا، ولكنها تمسكت بإسلامها، وصبرت حتى مات زوجها، وبقيت وحدها في الغربة غير قادرة على العودة إلى ديار أبيها، وحيدة مع ابنتها تدعو ربها أن يفرج كربها، مفوضة أمرها له –سبحانه - كانت أم حبيبة وقتها تقترب من الأربعين، وما زالت تحتفظ بجمالها، وزاد على محاسنها تقواها وورعها.

وهنا جاءت الرؤية الثانية؛ فقد رأت أم حبيبة فيما يرى النائم من يناديها بـ «أم المؤمنين»، ففسرته بأن رسول الله سوف يتزوجها، كان سيدنا محمد قد سمع بارتداد عبيد الله زوجها إلى المسيحية ثم وفاته، وعرف أنها تعيش وحدها مع صغيرتها في الحبشة، فقرر الزواج بها لتتحقق الرؤية للمرة الثانية، كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - في المدينة المنورة وكانت أم حبيبة في الحبشة.

ما إن انقضت عدتها حتى أتتها جارية من عند النجاشي ملك الحبشة اسمها أبرهة، وقالت لها إن الرسول - ﷺ - قد طلب من النجاشي أن يزوجه إياها.

فرحت أم حبيبة كثيرًا وقالت لأبرهة: «بشرك الله بالخير»، ووكلت عنها خالد بن سعيد بن العاص الأموي، وأعطت أبرهة سواري فضة كانا في قدميها وخواتم فضة كانت في أصابعها مكافأة لها على بشارتها، وعندما حل المساء دعا النجاشي جعفر بن أبي طالب وكل من كان موجودًا من المسلمين في الحبشة لحفل الزواج وبدأه قائلًا: «الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد ألا إله إلاَّ الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأنه الذي بشَّر به عيسى بن مريم؛ أمَّا بعد، فإن رسول الله كتب إلَيَّ أن أزوجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبتُ إلى ما دعا إليه رسول الله وقد أصدقْتُها أربعمائة دينار».

ودفع الصداق إلى وكيلها خالد بن العاص الذي وافق على طلب النجاشي بالزواج نيابة عن موكلته، وكان النجاشي على دراية كبيرة بالأمور الخاصة بالأنبياء؛ لذا عندما أراد القوم الذهاب

بعد إتمام الزواج رفض النجاشي وطلب منهم الجلوس لتناول الطعام لأنه من سنة الأنبياء أن يؤكل طعام عند زواجهم، فجلسوا وأكلوا.
لأم حبيبة منزلة خاصة بين أمهات المؤمنين؛ فهي أقربهن نسبًا لرسول الله؛ فهي ابنة عمه، وأعلى صداقًا وأبعد مسافة، فلقد تزوجها وهي في الحبشة وهو في المدينة المنورة.
عندما وصل صداق أم حبيبة إليها نادت على أبرهة كي تعطيها خمسين دينارًا لبشارتها لها، إذ عدَّت أن ما أعطته إياها لم يكن كافيًا، إلا أنها فوجئت بأبرهة تخرج كيسًا فيه كل ما أعطته إياها من فضة وتعيده إليها قائلة إن النجاشي الذي كانت أبرهة مسؤولة عن ثيابه قد أمرها ألا تأخذ شيئًا منها، وأمر نساءه أن يبعثن إليها بكل ما عندهن من العطر، وأتتها بالعود والعنبر وما عندهن كله، ثم قالت لها: كل ما أطلبه منك أن تخبري رسول الله - ﷺ - أني دخلت في الإسلام وأقرئيه السلام».
وذهبت أم حبيبة إلى زوجها ورأى ما حُمِّلت به من عطور فلم ينكره، وأقرأته من أبرهة السلام فأجابها - ﷺ - «وعليها السلام ورحمة الله وبركاته».
كان زواج النبي من أم حبيبة في السنة السابعة من الهجرة النبوية، ويقال إن لهذا الزواج سببين؛ أولهما: أن أم حبيبة ابنة سيد قريش وكان من شأن هذا الزواج أن يقرب بين الزوج وحميه لصالح الأمة، ولعله يدفع بأبي سفيان إلى دخول الإسلام.
ثانيهما: أن الله - سبحانه تعالى - أراد أن يكافىء أم حبيبة على صبرها وتمسكها بدينها رغم تعنت والدها، وثباتها عندما تحول زوجها إلى المسيحية وأصرت هي على ما آمنت به.
أثار زواج أم حبيبة من رسول الله غضب أبيها، ولم ينجح في ثنيه عن عبادته للأوثان، بقيت أم حبيبة بعد زواجها على شدة تمسكها بدينها وإخلاصها لزوجها رسول الله. وذات يوم جاء أبو سفيان –أبوها - إلى المدينة طالبًا من الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يمد فترة هدنة الحرب التي كانا قد اتفقا عليها في صلح الحديبية، إلا أن الرسول - ﷺ - رفض، فما كان من أبي سفيان إلا أن ذهب إلى ابنته، وعندما دخل إليها وجدها تطوي فراشًا أراد الجلوس عليه فرفضت. فغضب وسألها عن السبب، فأجابت بأنه فراش رسول الله وهو طاهر، أما أبوها فعدَّته مشركًا نجسًا لا يجوز له أن يمسه، ثم قالت له: «يا سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام وأن تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر؟!».
اهتمت أم المؤمنين أم حبيبة بحفظ القرآن والعلم ورواية الحديث، وتأتي في المرتبة الثالثة بين أمهات المؤمنين في حفظ ورواية الحديث بعد السيدة عائشة والسيدة أم سلمة، بعد وفاة الرسول - عليه الصلاة والسلام - حافظت على سنة زوجها وروت عنه أحاديث عدة يقال إنها وصلت إلى خمس وستين. وفي أيام الفتنة الكبرى عندما تمرد البعض على سيدنا عثمان بن عفان لأنهم كانت لهم عليه مآخذ، وجمعوا أنفسهم لإحداث فتنة، واشتد أذاهم لأمير المؤمنين، فكر البعض في أنهم لو أتوهم بأم المؤمنين أم حبيبة لربما صرفتهم عنه، فأتت على بغلة بيضاء، إلا أن المتمردين ردوها.
شهدت أم حبيبة وصول أخيها معاوية بن أبي سفيان إلى الحكم، وزارته في مقر خلافته في دمشق.
توفيت أم حبيبة بعد وفاة الرسول - ﷺ - بما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة، وحتى أيامها الأخيرة كانت تحرص على علاقتها بأمهات المؤمنين - رضي الله عنهن جميعًا - وفي آخر أيام حياتها استدعت السيدة عائشة - رضي الله عنها - وطلبت منها أن تسامحها؛ فعن عوف بن الحارث قال: «سمعتُ عائشة - رضي الله عنها - تقول: «دعتني أمُّ حبيبة زوج النبي عند موتها، فقالت: قد كان

يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك. فقلتُ: غفر الله لكِ ذلك كله، وتجاوز وحلَّلَكِ من ذلك. فقالت: سررتني سرَّك الله». وفعلت الأمر نفسه مع بقية أمهات المؤمنين. توفيت أم حبيبة رضي الله عنها سنة أربع وأربعين عن ثمان وستين سنة في المدينة المنورة، في الدار التي كانت يومًا لعلي بن أبي طالب، ودفنت فيها، رحم الله أم حبيبة المرأة القوية الثابتة المخلصة الصابرة، ابنة سيد القوم التي تحدت الجميع عندما آمنت، فكافأها الله وهو نعم النصير.

١٠ - السيدة صفية بنت حيي

السيدة صفية بنت حيي تزوجها الرسول - ﷺ - بعدما أسلمت، إلا أنها عاشت توصم بأهلها، وتسمى باليهودية.
صفية بنت حيي بن أخطب الهارونية، من سِبْط اللاوي بن نبي الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ثم من ذرية رسول الله هارون شقيق موسى عليهما السلام، كانت حبيبة والدها حيي أحد زعماء يهود خيبر الذين كانوا يكرهون سيدنا محمد كراهية كبيرة، بعد صلح الحديبية أضمر يهود خَيْبَر لسيدنا محمد الشر، وقرروا محاربته مع يهود آخرين، وعرف الرسول بنيتهم المبيتة، فقرر الذهاب لمحاربتهم بدلًا من أن يسبقوه ويفاجئوه.
وانتصر الرسول - ﷺ - على أهلها فى خيبر، وأصبحت من السبايا، وقتل زوجها كنانة بن أبي الحقيف، أتى بها بلال بن رباح وقريبة لها كانت تلطم فى كل مرة تشاهد فيه جثة أحد من أهلها، فغضب الرسول من فعلها هذا وطلب منهم إبعادها عنه، وكانت صفية سيدة بني قريظة وبني النضير، سيدة قومها، كانت شديدة الجمال، رابطة الجأش، كاظمة للغيظ، ورغم سنين عمرها القليلة - إذ يقال سبعة عشر عامًا - كانت قد تزوجت مرتين قبل رسول الله ﷺ.
عندما قرر رسول الله الدخول على صفية كانت في بداية الأمر كارهة له، فقد قتل أباها في قريظة، وقتل زوجها في خَيْبَر، إلا أنه جلس معها وأخبرها بما فعله قومها، وبقي يحدثها حتى اقتنعت وقالت: «ما من الناس أحد أحب إلي منه».
وخيّر النبي صفية بين أن يعتقها فتعود إلى من بقي من قومها وأن تدخل الإسلام وعندها يأخذها لنفسه، فاختارت الله ورسوله، فأعتقها رسول الله وكان عتقها هو مهرها. وللسيدة صفية حكاية روتها بنفسها، إذ رأت فى المنام يومًا «قمرًا» يلقى في حجرها، وعندما قصت منامها هذا على زوجها فى ذلك الوقت كنانة بن الربيع لطمها على وجهها بشدة قائلًا لها: «أتتمنين الزواج بملك الحجاز؟!»، وتركت لطمته علامة على وجهها لم تقلل من جمالها، وكان الجميع يثنون على حسنها حتى غارت منها السيدة عائشة قبل أن تراها.
عندما رأتها السيدة عائشة ورأت حسنها وذكاءها غارت أكثر، وعندما سألها الرسول عنها أجابته: هى يهودية، فكان رد الرسول بسماحته: «بل مسلمة أحسنت إسلامها».
حاولت السيدة صفية كسب ود آل بيت رسول الله إرضاء له، فأهدت السيدة فاطمة قرطًا ذهبيًّا، وكانت تحاول أن تتقرب من السيدتين عائشة وحفصة ولكنها لم تنجح؛ إذ كانت حفصة تصمها بأنها يهودية.
دخل عليها رسول الله يوما فوجدها تبكي؛ لأن حفصة قالت إنها خير منها، فأجابها رسول الله ﷺ: «كيف تكونان خيرًا منك وأنت ابنة نبي، وعمك نبي، وأنت تحت نبي، ففيم تفخران عليك».
في إجابته لصفية، طيب الرسول خاطرها، وذكرها بأنها من سلالة النبيين هارون وموسى عليهما السلام.
كانت صفية معروفة بطيبتها، وأن ما في قلبها على لسانها، كانت ورعة، تقية، وصبرت على تغامز النساء حولها فيما يخص ديانة أهلها.

حاولت إحدى جارياتها إيقاعها في مشكلات، إذ أشاعت أنها تصلي السبت وتصل اليهود، وسمع سيدنا عمر بن الخطاب بالأمر - وكان خليفة المسلمين - فسألها، فأجابته بأنها أبدلت السبت بالجمعة، وأن سؤالها عن اليهود ما هو إلا سؤالها عن أهلها عملًا بصلة الرحم.
ثم أحضرت جاريتها التي أشاعت هذا عنها وسألتها عن السبب، فأجابتها: «الشيطان السبب»، فما كان من صفية إلا أن أعتقتها من منطلق الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.
وظل الناس دومًا بعد وفاة الرسول يلمزونها بأصلها اليهودي، رغم شهادة الرسول لها بحسن الاسلام.
يحسب لها موقف إنساني راقٍ عندما آزرت سيدنا عثمان بن عفان فى محنته، حتى إنها وضعت خشبًا بين منزلها ومنزله كي تنقل إليه الطعام والماء في مدة حصاره.
ولم تنقطع عن أهلها إيمانا منها بصلة الرحم، وكانت سخية تكثر من الصدقات، عاشت صفية أربعين سنة بعد وفاة رسول الله، وتوفيت في السنة الخمسين للهجرة.
كانت قد ورثت مائة ألف درهم أوصت بعد وفاتها بثلثها لابن أختها اليهودي، فأبوا أن يعطوه ميراثه، فذهب للسيدة عائشة يشتكي، فتدخلت وأعطوه حقه، رغم ما كان بين المرأتين من غيرة، ولكن أخلاق سيدات آل البيت تنتصر دومًا، نفذت عائشة لصفية وصيتها، قصة السيدة صفية تتكرر يوميًّا فى عالم اشتد فيه التعصب الأعمى، ولكن يكفيها فخرًا أنها دفنت فى البقيع مع أمهات المؤمنين، ولا فرق تحت التراب بين شخص وآخر إلا بالتقوى.

١١ - ميمونة بنت الحارث

آخر زوجات سيدنا محمد ﷺ
ليس من السهل الكتابة عن سيدات بيت النبوة، فالمصادر قليلة وعليّ أن أبحث وأدقق وأتمنى أن يحتسب الله عملي هذا في ميزان حسناتي.
حديثي الآن سيكون عن ميمونة بنت الحارث الهلالية آخر زوجات النبس محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - فهي من ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حين قال: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) [الأحزاب: ٥٠]، وللآية حكاية، نبدأها من قبلها بفترة.
ميمونة هي ابنة الحارث الهلالية العامرية، أختها أم الفضل بنت الحارث زوجة العباس عّم رسول الله، هي ثاني امرأة تؤمن بعد السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، أختها الثانية هي سلمى بنت عميس زوجة سيدنا حمزة، أسد الله، وعم رسول الله، تزوجت قبل رسول الله «أبا رهم بن عبد العزى العامري»، وتوفي عنها وهي في ريعان الشباب.
وفي السنة السابعة للهجرة النبوية، دخل رسول الله - ﷺ - وأصحابه مكة معتمرين، فيما عُرفت بعمرة القضاء، وطاف النبي الكريم بالبيت العتيق بيت الله
الحرام، وكانت ميمونة بمكة أيضًا ورأت رسول الله وهو يعتمر فملأت ناظريها به حتى استحوذت عليها فكرة أن تنال شرف الزواج من رسول الله - ﷺ - وأن تصبح أمًا للمؤمنين.
ذهبت إلى أختها أم الفضل، وحدثتها عن حبها وأمنيتها في أن تكون زوجًا للرسول الله - ﷺ - وأمًا للمؤمنين، فذهبت أم الفضل إلى زوجها العباس وأفضت إليه بأمنية أختها ميمونة، ويبدو أن العباس أيضًا لم يكتم الأمر عن ابن أخيه فأفضى إليه بأمنية ميمونة بنت الحارث، فبعث رسول الله ابن عمه جعفر بن أبي طالب ليخطبها له، وما إن خرج جعفر - - من عندها، حتى ركبت بعيرها وانطلقت إلى رسول الله - ﷺ - وما إن وقعت عيناها عليه ﷺ حتى قالت: «البعير وما عليه لله ورسوله»، وهكذا وهبت ميمونة نفسها للنبي - ﷺ - وفيها نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) [الأحزاب: ٥٠].
أتم رسول الله عمرته فأتى إليه مجموعة من كفار قريش وطلبوا منه مغادرة مكة فاستأذنهم في أن يتزوج من ميمونة في مكة، وعرض عليهم مقابل موافقتهم إطعامهم، إلا أن الكفار رفضوا وأصروا على خروجه من مكة، فلحقت به ميمونة إلى سَرِف، وفي ذلك الموضع دخل بها الرسول - ﷺ - ويومئذ سماها الرسول ﷺ «ميمونة» بعد أن كان اسمها «برة بنت الحارث»، أسماها ميمونة لأن زواجه بها جاء بعد عودته إلى مكة أو بعد فتح مكة، بعد أن كان قد خرج منها مهاجرًا منذ سبع سنوات، لذا اعتبر الزواج ميمونًا فأطلق عليها اسم ميمونة.
فعقد عليها بسرف وهي منطقة خارج مكة بعد تحلله من عمرته لما روي عنها:
- «تزوجني رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسرف».
كانت ميمونة في السادسة والعشرين من عمرها، حرصت على تنفيذ ما يقوله رسول الله فكانت تصلي كثيرًا في المسجد النبوي.

وظلت مكانتها رفيعة عند زوجها حتى إذا اشتد به المرض عليه الصلاة والسلام نزل في بيتها، ثم استأذنتها عائشة بإذن النبي ﷺ بأن ينتقل إلى بيتها ليمرض،
حيث إن السيدة عائشة كانت الأقرب لقلبه.
بعد وفاة الرسول ﷺ عاشت ميمونة حياتها تروي عن الرسول أحاديثه وتحرص على نشر سنته ونقل عنها قرابة ثلاثة عشر حديثا متفق على سبعة منها، رغم قصر المدة التي عاشتها مع زوجها، وعاشت ميمونة طوال فترة الخلفاء الراشدين معززة مكرمة تحظى باحترام الجميع إلى أن وصلت لخلافة معاوية بن أبي سفيان.
وفي سنة واحد وخمسين من الهجرة خرجت السيدة ميمونة إلى مكة، وهناك مرضت مرضًا شديدًا وكان رسول الله قد أخبرها أنها لن تموت في مكة، فطلبت أن يخرجوها منها لأنها لن تموت بها، فحملوها إلى طرف، وهو المكان الذي تزوجت رسول الله فيه وهناك أسلمت روحها لخالقها، فكان مكان زواجها هو مكان وفاتها.
رحم الله أمنا ميمونة التي أحبت وتمنت الارتباط بمن تحب، فتحقق مرادها حتى ماتت في المكان الذي شهد زواجها.

١٢ - ريحانة بنت زيد

ريحانة بنت زيد بن عمرو بن قنافة النضيرية، يهودية من بني النضير، أبوها شمعون بن زيد.
كانت معروفة بجمالها الشديد وملاحتها ورجاحة عقلها، إضافة إلى حسبها ونسبها بين قومها، زوجها كان اسمه «الحكم» من بني قريظة وكان يحبها حبًا شديدًا، وكانت تبادله الحب والإخلاص وحسن المعاملة، وبني النضير قبيلة يهودية سكنت غرب شبه الجزيرة العربية حتى القرن السابع ميلادي، وفي السنة الرابعة من الهجرة أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بغزوة بني النضير بعد محاولة يهود بني النضير قتله عليه أفضل الصلاة والسلام، أتاهم الرسول وحاصر المدينة بقوات المسلمين بقيادة علي بن أبي طالب، وطلب منهم الخروج منها، وبعد أيام طويلة من الحصار طلبوا إجلاءهم عن المدينة فوافق الرسول محمد عليه أفضل الصلاة والسلام شريطة أن يأخذوا ما يريدون إلا السلاح، وبسبب غضبهم الشديد قاموا بتخريب بيوتهم بأيديهم وحملوا معهم الأبواب والنوافذ حتى لا يأخذها المسلمون، واستمر معظمهم في المماطلة رافضين الخروج إلى أن فوجئوا بفرسان المسلمين وقد توسطوا ساحتهم ودخلوا من ثغرة إلى حصونهم فسبي من سبي وقتل من كان يقاتل، وتم إجلاء من تبقى عن الديار، وغزوة بني النضير فيها الكثير من العبر والدروس لمن يعتبر، فقد تجلت قدرته سبحانه على تغيير الأحوال وتبديلها عندما يكون الإيمان بقدرة الله شديدًا، فقد كان يهود بني نضير أصحاب حصون يتحصنون داخلها في كل الغارات ولا يستطيع أحد اختراقها، ولكن لله أسلحة خفية يستخدمها عندما يشاء ومن بينها الخوف، إذ أنزل الله على قلوبهم رعبًا شديدًا فاستسلموا للمسلمين وخربوا منازلهم بأيديهم، وقتل عدد من اليهود.
وكان ممن قتل الحكم زوج ريحانة، وحزنت عليه حزنًا شديدًا حتى أنها قالت إنها لن تتزوج بعده، ووقعت ريحانة أسيرة في السبي وعرضت على الرسول عليه الصلاة والسلام فاصطفاها لنفسه.
وهناك روايتان فيما يخص ريحانة بنت زيد، واحدة تقول إن رسول الله ﷺ قد حررها وتزوجها، ورواية أخرى تقول إنه سباها وجعلها ملك يمينه وهي الرواية الأرجح.
بعد أن وقعت في الأسر أتاها الرسول وقال لها:
- «إن اخترتِ الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه».
ولكن ريحانة أبت في بداية الأمر الدخول في الإسلام وقالت:
- «أنا على دين قومي».
فعزلها رسول الله، وذات يوم بينما كان رسول الله ﷺ مع أصحابه سمع وقع نعل فقال: «إِنَّ هَاتَيْنِ لَنَعْلَا ابْنِ سَعْيَةَ يُبَشِّرُنِي بِإِسْلَامِ رَيْحَانَةَ»، فجاءه فقال:
- «يا رسول الله، قد أسلمت ريحانة».
سُرَّ رسول الله بذلك، وأرسلها إلى بيت خالته «أم المنذر سلمى بنت قيس» رضي الله عنها وهي سيدة تقية مصلية للقبلتين وحافظت على البيعتين، وكانت تعرف أنها صاحبة نفحات خاصة، فقد كان في طعامها شفاء، وكان رسول الله يأكل عندها دومًا، وطلب من خالته أن تخبره إن حاضت حيضة واحدة، وبقيت ريحانة في بيت أم المنذر حتى حاضت فذهبت وأخبرت رسول الله ﷺ، كانت في ذلك الوقت قد بدأت ريحانة تشعر بالاطمئنان، وعندما قبلت أن تكون من نصيب رسول الله خيرها عليه الصلاة والسلام بين أن يعتقها ويتزوجها وبين أن تكون ملك يمينه.

واختارت أن تكون ملك يمين رسول الله قائلة:
- «يا رسول الله أكون في ملكك أخف عليّ وعليك».
ونطقت بالشهادتين وأسلمت وأعرس بها الرسول في بيت أم المنذر في السنة السادسة من الهجرة.
وهناك رواية أخرى تقول إنه أعتقها وتزوجها وأعطاها صداقًا كما أعطى زوجاته السابقات، ولكن الأرجح أنه لم يتزوجها عليه الصلاة والسلام.
وأحبت ريحانة رسول الله حبًا شديدًا وكانت تغار عليه كثيرًا، وذات يوم غارت فاحتدت وحدثته بلهجة قاسية وعبارات شديدة معتمدة على حب رسول الله لها وحرصه على إرضائها، فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن طلقها، هنا ندمت ريحانة بشدة ولجأت إلى أم المنذر تبكي لها وتشتكي وتستعطفها كي تصلح بينهما، ففعلت أم المنذر وذهبت لرسول الله كي يردها فعاد معها إلى منزلها، وعندما وجدها على ما هي عليه من حزن ردها إليه، ومنذ ذلك اليوم أصبحت ريحانة شديدة الطاعة لحبيبها لا تغلبه في قول أو فعل، وعاشت معه تقريبًا خمس سنوات كانت مليئة بالأحداث الجسام مثل صلح الحديبية وفتح خيبر وفتح مكة.
وكانت ريحانة معروفة برجاحة عقلها وفصاحتها، وذات يوم بينما كانت في الحج التقت رجلا قال لها:
- «إن الله لم يرضك للمؤمنين أمًا».
فأجابته:
- «وأنت فلم يرضك الله لي ابنًا».
هذه الإجابة تؤكد أن ريحانة بقيت ملك يمين الرسول ولم يتزوجها.
عاشت ريحانة في بيت النبوة سنوات قليلة، مرضت فجأة وهي في عز شبابها وعانت كثيرًا حتى توفيت بعد عودة سيدنا محمد من حجة الوداع في آخر السنة العاشرة من الهجرة، حزن رسول الله عليه الصلاة والسلام لفراقها وطلب من أم المنذر ونساء أخريات تغسيلها وتطييبها، ثم حملت إلى البقيع ودفنت قرب أم المؤمنين زينب بنت خزيمة، وسار رسول الله والصحابة في جنازتها ودعا لها كثيرًا، كانت ريحانة من أحب نسائه إلى قلبه، وكانت تعلم هذا وتدركه وتتباهى به، لذا حزن عليها عليه أفضل الصلاة والسلام حزنا شديدًا ورغم هذا الحب يتناساها الكثير من المؤرخين عند ذكر زوجات الرسول.
كون سيدنا محمد لم يتزوج السيدة ريحانة فإن هذا لا ينتقص من مكانتها، سواء أكانت زوجة للرسول وأمًّا من أمَّهات المؤمنين، أم سريَّةً من سراريه ﷺ؛ فهي لها مكانةٌ عظيمةٌ لمحبة رسول الله لها، وهي تعتبر إحدى نساء بيت الرسول ﷺ، رضي الله عنها وأرضاها.

١٣ - ماريا القبطية

يقال إن السيدة عائشة رضي الله عنها أحب زوجات الرسول ﷺ إليه كانت تقول: «ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية».
وذلك بأنها كانت جميلة جعدة (أو دعيجة) وكانت بيضاء بهية الطلعة.، ماريا المصرية القبطية من قرية على الضفة الشرقية للنيل يقال لها «حفن» تجاه أشمون، أبوها شمعون وأختها سيرين، كانت وأختها تخدمان في قصر المقوقس عظيم القبط، حاكم الإسكندرية والنائب العام للدولة البيزنطية في مصر، بعد صلح الحديبية بدأ رسول الله صَل الله عليه وسلم يدعو الدول المجاورة وحكامها في محاولة لنشر الإسلام في كل مكان، أرسل إليه سيدنا محمد برسول يشرح له الإسلام، فرد برسالة مغزاها أنه فهم ما قاله وما يدعو له وأنه سيرسل إليه هدية عبارة عن جاريتين وكسوة وبغلة ليركبها.
باختصار اقتنع أن محمدًا نبي ولكنه بقي على مسيحيته، الجاريتان كانتا مارية بنت شمعون وأختها سيرين، والبغلة كانت بيضاء واسمها دلدل، ويقال إن البغلة بقيت على قيد الحياة حتى وصل معاوية بن أبي سفيان للخلافة.
مارية وأختها سيرين هدية المقوقس للنبي محمد ﷺ، تركتا مصر واتجهتا مع حاطب بن أبي بلتعة إلى المدينة المنورة، عندما شاهد سيدنا محمد مارية اختارها لنفسه، وأهدى أختها لشاعره حسان بن ثابت.
كانت ماريا ملك يمين رسول الله ﷺ، وكان يقضي بصحبتها وقتا طويلا مما أثار غيرة السيدة عائشة.
وبعد فترة أصبحت مارية حاملا، ثم أنجبت ابنه إبراهيم في شهر ذي الحجة من السنة الثامنة للهجرة، بإنجابها لإبراهيم أصبحت مارية حرة، وقال رسول الله:
- «أعتقها ولدها».
فرح رسول الله بإبراهيم كثيرًا، وتصدق على الفقراء وكانت عقيقة الطفل كبشًا، وقصوا شعره ودفنوه في الأرض.
كانت مارية سيدة طيبة، صادقة نقية، شديدة الأدب، ولذلك أكرمها الله بإبراهيم، سعدت كثيرًا بابنها، اعتنت به كثيرًا وأصبحت لها شعبية بين أهل المدينة لأنها منحت رسول الله ولدًا.
وبعد عام ونصف على ولادته مرض الطفل إبراهيم مرضًا شديدًا ثم توفي، كان قد مر بعد سبعة عشر شهرًا على ولادته، وبكى على فراقه والده بكاءً شديدًا وقال عليه الصلاة والسلام: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».
وبعد أن غسله الفضل بن عباس واراه والده التراب بنفسه في البقيع بعد أن صلى أربعًا، أمر غريب حدث يوم وفاة الطفل إبراهيم، إذ كان هناك كسوف للشمس، فاعتقد الناس أن السبب يعود إلى موت الطفل، عندما سمع رسول الله ما يقوله الناس خرج وقال:
- «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله».
أوصى سيدنا محمد بالأقباط خيرًا وأمر المسلمين بالإحسان إليهم، محبة في مارية وفي إبراهيم، ولمارية التي تكنى بالقبطية رغم إسلامها نسبة لأصولها شأن عظيم في أحداث السيرة النبوية، فلقد

أنزل الله عز وجل صدر سورة التحريم بسبب مارية القبطية، وهذا ما أورده العلماء ومفسرو القرآن الكريم، إذ إن حفصة غارت منها عندما اجتمع بها في بيتها أثناء زيارتها لأبيها، فوعدها ألا يقرب مارية بعد اليوم، وهنا نزلت الآية التي أنصفت مارية والتي تقول: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) [التحريم: ١]، أي أنه لا ينبغي لرسولنا أن يحرم ما أحله الله له.
مارية لازمت منزلها بعد وفاة ابنها لا تخرج إلا لزيارة قبره، وكان الرسول ﷺ يزورها دومًا وتوفي بعد وفاة ابنه بعام، وبقيت صابرة محتسبة حتى توفيت بعده بخمس سنوات، ودعا عمر بن الخطاب الناس للصلاة عليها، وصلى عليها بنفسه في البقيع ودفنت إلى جانب ابنها وإلى جانب أمهات المؤمنين.
لله حكمة بالتأكيد أن تكون مارية المسيحية التي أسلمت هي أم إبراهيم، مارية بنت شمعون المصرية مثال للسيدة الشجاعة التي أحبت الرسول عليه الصلاة والسلام، صبرت على فقد ابنها رغم ألمها الشديد، وسلمت بأن هذا الأمر لله من قبل ومن بعد.
من أجلها بني مسجد في مسقط رأسها يحمل اسمها، ورفعت الجزية عن أهلها في زمن معاوية بن أبي سفيان.

وختامًا

يقول (ابن قيم الجوزية): «وإذا كانت سعادة العبد في الدارين مُعلَّقة بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، فيجب على كل مَن نصح نفسه، وأحبَّ نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته ونشأته ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عِداد أتباعه وشيعته وحزْبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ ومُستكثِر، ومحرو، والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

شرع الكثيرون في الكتابة عن سيرة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وعن سير بقية الأنبياء، بينما لم تتطرق أغلب هذه الكتابات إلى سيرة زوجات الرسل والأنبياء إلا نادرًا، ولا أمل من تكرار القول أن عملية البحث في شانهن قد أخذت مني جهدًا غيرعاديَا وأن العثور علي المعلومات وتنقيحها حتى وإن جاءت في أكثر من مصدر فقد كانت أمرًا شديد الحساسية، إذ أنني في نهاية المطاف أعد كاتبة وباحثة لا أنقل فحسب بل أقرا وأتحرى الدقة فيما يجب كتابته، كما أنني أعتبر العلم والمعرفة فرض في رأيي، ولقد خلقنا الله علي هذه الأرض كي نتعلم ونفهم ونتدبر، بدليل أن أول كلمة نزلت كانت إقرأ، كما تطلب كل الديانات السماوية من معتنقيها أن يقرأوا ويتدبروا فيما يقرأون.

وإن دراسة السيرة النبويَّة بالنسبة لكل مسلم مهمة جدًا كي يقتدي ويتعلم عامة وان كان عالمًا او باحثًا فقد يكون باستطاعته خدمة السيرة النبوية بالبحث والدراسة خاصة، وبالتوثيق والتفكر، والنشر والتوضيح، لأنه ومن دون أدنى شك البحث في هذا الإطار يحتسب خدمة للبشريَّة كافة ومعرفة تفاصيل حياة الانبياء وكلّ ما يتعلّق بحياة الرسول -صلّى الله عليه وسلّم العامة والخاصة، والذي يمكن من خلالها أن يقتدي البشر بها في شؤون الحياة جميعها، مهمة اشكر الله انه أعانني عليها وأتمني أن تكون ذات منفعة ولو بسيطة للقارئ.

وإن زوجات الأنبياء علي مر العصور شكلوا جزء كبير ومؤثر ومغاير في مجتمعهن، ففي العراق مثلًا أو بلاد بابل كانت المرأة تعتبر في عداد الماشية المملوكة حسب شريعة «حمورابي»، وعليها أن تبقى في بيتها لرعاية أطفالها، وخدمة زوجها والسهر على راحته، وإدخال السرور الى قلبه، واذا مات هذا الزوج ورثها شقيقه هكذا تلقائيًا ودون نقاش، أما المرأة الفرعونية فكانت أفضل حالًا، إذ أنها تملك، وترث، وتتولى أمر أسرتها، في غياب الزوج، فيما كان الزوج يكتب كل ما يملك من عقارات لزوجته، والتي كانت تساعده بدورها في الزراعة والعمل، كما أن أطفال الفراعنة كانوا ينسبون لأمهاتهم لا لآبائهم، وكانت القوّامة للمرأة على زوجها، وكان عليه أن يتعهّد في عقد الزواج أن يكون مطيعًا لزوجته في جميع الأمور، أمّا عن حال المرأة العربيّة في الجاهليّة، سنجد أننا ندرك أوضاعها ومكانتها بالفعل من القرآن الكريم وما علمنا به عن ردة فعل كل أب لدى تبشيره بميلاد الأنثى على عكس ميلاد الذكر، وكيف كانوا يلجئون إلى وأد البنات والعمل على التخلّص منهن دون تردد، وكيف كانت المرأة تباع وتشترى في أسواق النخاسة والعبيد، حتى جاء الإسلام ليكرم المرأة ويرفع من مكانتها.

لذا فإني أعتبر كتابتي عن سيرة نساء الأنبياء فرصة خاصة لدراسة جزء من حياة هؤلاء الانبياء أنفسهم، وطريقتهم في التعامل - عليهم أفضل السلام جميعًا - وذلك بتتبع الجانب الشخصي الملئ بالعبر والعظات، فالأنبياء بشر، أحبوا وتزوجوا وأنجبوا، وكانت زوجاتهم هن رفقاء الطريق

اللاتي تعلمت الكثير من قراءاتي عنهم وأتمني من كل من يقرأ كتابي هذا أن يطبق ما يمر به من أساليب الانبياء في حياتهم الأسرية.
أعترف أنني أحببت السيدات اللاتي كتبت عنهن وكأني أعرفهن، وكأني حييت تلك الحياة الملهمة التي توارثناها عنهن، أعترف أنني كلما شرعت في الكتابة عن سيرة كل زوجة من زوجات النبي كلما شعرت برغبة في تطبيق ما علمته لتوي، كلما حاولت تخيل حياتهن اليومية وكيف كانوا يحسنون التصرف حتى تخرج إلينا تلك السيرة العطرة وتدوم بعد كل هذه السنوات.
توغلت في بحر تفاصيل كثيرة تجري أمواجه، وأحدًا لا يستطيع إيقافها، حتى أنني تخيلت ملابسهن وكيف أنهن في نهاية المطاف نساء وأني إمرأة تكتب عن النساء فلابد لي من أن أعير اهتمامًا كبيرًا لما أتلوه عنهن، اهتمام من نوع خاص، بداية من - زوجة سيدنا أيوب - الجميلة، السيدة سارة التي قيل عنها أن السنين لم تترك أثرًا على وجهها، وعن سعادتها عندما جائتها البشرى بإسحاق وضحكت، السيدة خديجة والسيدة عائشة رضي الله عنهما، وحالاتهن في غيرتهن وغضبهن وحبهن وحنانهن، كما أثارني الفضول عن سيرة السيدة مارية القادمة من مصر، وهل كانت ملامحها تشبه ملامح المصريات الموجودات علي جدران المعابد في ذلك الحين؟ وحينها تمنيت لو كنت أمتلك قدرًا أكبر من المعلومات كي أعرف وأحيطكم علمًا معي، وتوقفت كثيرًا أمام السيدة حواء أول الخلق من النساء - زوجة النبي آدم عليه السلام - ورحت أتسائل كيف كان حالهما في الجنة؟ وكيف تأقلما علي الحياة علي الأرض؟ .. ومنهم إلى زوجة سيدنا نوح عليه السلام، فيحضرني سؤال آخر، لماذا صبر سيدنا نوح علي زوجته التي لم يعهدها مطيعة له؟ كما تخيلت السيدةهاجر المصرية بقولها لسيدنا إبراهيم (إذًا لن يضيعنا).
جماعة من النساء قد اصطفاهن الله - سبحانه تعالي - كي يعشن قرب أنبياءه، وقد أنهيت كتابتي عنهن في كتابي هذا بعدما بحثت وعلمت أن لكل واحدة منهن حكاية يجب التبليغ بها، حتى وإن عرفنا منها ما استطعنا فحسب ولم نقوى على معرفة الكثير، لأنه من المؤكد أن هناك ما يزال حيًا في علم الغيب من تفاصيل أعظم وحكايات أعمق، حكايات عن حيوات طويلة تركت بداخلنا اسئلة عديدة ربما خطرت علي بال كثيرين، ولكن لحكمة ما فلا نعلمها ولا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ونخرج بأن يكون النصيب الأكبر لمعظمهن هو محبة في قلوبنا.
أدعو الله أن يجمعني بهن في الجنة .. ولعل ما أرجوه سوف يكون.
ديسمبر ٢٠١٩
رولا خرسا

شكر خاص

إلى مجمع البحوث الإسلامية وكل القائمين عليه لما بذلوه من مراجعة دقيقة لهذا الكتاب واعتماد نشره وأيضًا على الملاحظات القيمة التي لولاها ما خرج هذا العمل بصورته الحالية جعله الله في ميزان حسناتكم جميعًا...

- زينب بنت خزيمة